يوسف السباعي

خبايا الصدور

الطبعة الثانية

الناشر مكتبة الخانجي

obeikandl.com

للمؤلف

أطياف

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ — الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر — طبع فى شركة فن الطباعة

الطبعة الثانية سنة ١٩٥١ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

نائب عزرائيل

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ — الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر — طبع فى شركة فن الطباعة

الطبعة الثانية سنة ١٩٥١ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

اثنتا عشرة امرأة

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

خبايا الصدور

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ — الناشر : دار النشر العربية — طبع فى دار الأحد ببيروت : لبنان

الطبعة الثانية سنة ١٩٥١ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

يا أمة ضحكت

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠ — الناشر : مكتبة الخانجى — طبع فى شركة فن الطباعة

obeikan.com

اثنا عشر رجلا	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أرض النفاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة النهضة طبع فى مطبعة السعادة الكبرى
فى موكب الهوى	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
من العالم المجهول	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذه النفوس	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة
إنى راحلة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة

obeikandl.com

مبكى العشاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى مطبعة الاعتماد
بين أبو الريش وجنينة ناميش	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أغنيات	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أم رتيبة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذا هو الحب	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربى طبع فى شركة فن الطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى الذين فى شفاههم صمت ، وفى حشاهم صخب .

إلى الصابرين على الجوى .

الهادئين على السعير .

إلى الذين انطوت قلوبهم على مشاعرهم .

وأغلقت صدورهم على خباياهم .

أهدى بعض « خبايا الصدور »

يوسف السباعى

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

كنت أشعر دائماً بأن هذا الكتاب (خبايا الصدور) ابن غير شرعى لى . وكنت أراه دائماً بين بقية أبنائى — أعنى كتبى — هزيلا بالى الثوب ، رث المظهر . لا يجسر على أن يختال ، ويزهو بين بقية الكتب .

والكتاب قد طبعت طبعته الأولى ونشرت فى لبنان وكان الحلقة الأولى من سلسلة كتب شعبية « باسم القارىء العربى » أخرجتها دار النشر العربية ، وأغلب ظنى أنها قد توقفت بعد بضعة كتب لأسباب لا أعلمها .

وأنا أكره الرثاثة والبلى . . وأهفو إلى أناقة الطبع وجمال العرض ، ولذا لا أميل قط إلى الطبعات الرخيصة التى يسهل توزيعها لأنى أفضل أن يكون فى يدى كتاب جميل عن أن ينشر الكتاب على رثاثه بين آلاف الناس .

وأذكر أنى جلست والشاعر الكبير الأستاذ أحمد رامى وكان قد أخرج ديوانه (رباعيات الخيام) فى طبعة أنيقة . وتحدثنا عن ربح الكتب فأنبأنى أنه لم يربح من كتابه شيئاً سوى إحساسه أن له كتاب جميل .

وقد كان الأستاذ رامى على حق . . فإن متعة الكاتب بكتابه الأنيق يقلبه بين يديه لا تعادلها متعة .

هذه مقدمة الطبعة الثانية . ويبقى على القارىء بعد ذلك أن يقرأ مقدمة الطبعة الأولى بقلم الأستاذ « عبد الله العلايلى » ، وقد قرأت أنا المقدمة المكتوبة عن كتابى بضعة مرات . . . ولست أملك إلا تقديم فروض الشكر للكاتب الأديب على حسن تقديمه للكتاب وإن كنت أعتب عليه قوله :

« لولا أن المؤلف مكفوف فى فنه على هذا اللون لأتى فى الطليعة بين قلة نادرة تعتمد هذا الحرف العربى » .

وكنت أود قبل أن يجزم بأنى مكفوف على هذا اللون . . أن يقرأ كل ما كتبت حتى يوقن أنه جار علىّ فى حكمه .

يوسف السباعى

مقدمة (الطبعة الأولى)

كان مصادفة أنه انتهى الي هـذا الكتاب ، وكان عفواً أنى انصرفت الى تقليب صفحاته ، فعل المتظاهر بأمر وهوى نفسه فى أمر آخر أو فى غير شيء واضح لنفسه .

فلبثت أمداً ، أطبقه تارة وأفتحه تارة ، ولا أستقر فأطمئن الى حال من الحالين .

على أنه — أى هذا الكتاب — ظل فى هوى الرغبة ليدي ، كأن احساساً غامضا يراودني وأنا ألوذ بوجه غير وجهه . ولكنه نمادى بى ، فوجدتنى فجأة وقد أعطيته منى وراح يعطيني منه ، فتملقته مثل لقية بعد فقد — أو ان شئت — فكتجسد حلم عند صحو . وأمضى غير متلبث ، وأظمأ مع النقلة ظمأ المستشف المستكشف — ان فى التأمل أو فى الفكر أو في اللذة — وقد اتصل ببصره خيط حائر من خيوط ومضة بات يترصدها شأن الصنيع الفنى الحق ، تكون قيمته فى مقدار ما يعين عمل الظمأ ، بما فيه من لفتات لا تفتأ تعرض وتشرد ، أي لا تفتأ تتفجر وتتحدر ، لا تفتأ تتوارى وتتكشف . وبما فيه أيضاً من بدوات لا ينقطع دفقها ، فهى أبداً تنبض نبض الألق فى الشعاع الحى الذي اذا جدت طبيعته عن اعطائه فقد جدت طبيعة الشعاع فيه وغدا صورة وليس شعاعا . هذا الشيء الذي أحسه بوضوح ، ورام أن يكشف عنه بوضوح أيضاً أبو نواس في قوله :

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظراً

وهو ادراك عميق عند النواسي استجلى به عقدة الجمال — أو عقدة الحسن كما ذهب بعير — فى معني أسره واستهوائه ، وسر استيلائه واستعلائه .

وليس من فرق بعد ذلك الا فرق التسميات ، بين هذا الحسن عن يد الطبيعة الحية وبين الحسن عن يد الفن الصناع المعبر على أى نحو وبأية أداة .

وأنا من زاوية حسى أفكر ، بأن الأثر الفني تنحصر قيمته فى مقدار ما يظمىء ، فى مقدار ما يروى ، ويكون الظمأ فيه عنوان حياته ، وأنه يتجدد تجددك كلما طالعته بالتأمل وطالعك بالعطاء . أما الأثر الفني المروي ، فيجيء الرى فيه عنوان توقفه أو انقطاعه عن الامداد ، وأنه متجسد من لا يملك حيويته بل حظاً منها .

وبهذا المقياس الذي أراه وأحس بصحته وسلامة عمله ، أخذت هذا الكتاب وبالأحرى (المجموعة القصصية) فألفيته لا يقع دونه ، على أنه يجيء بقسم كبير منه فى حدوده .

فأقصوصة الأزهار الذابلة — وأصطفيها للدلالة عليه — لا أذكر أنى قرأت أعذب وأمتع منها ، للتعبير عن عمق العاطفة الانسانية فى لون الحب ، وعن خلودها أيضاً بهذا العمق . ولولا أن المؤلف مكفوف فى فنه على هـذا اللون ، لأتى فى الطليعة بين نلة نادرة تعتمد هذا الحرف العربي .

عبد الله العلايلي

للمؤلف

تحت الطبع

الشيخ زعرب وآخرون

صور طبق الأصل

تمثيليات قصيرة

آثار فى الرمال

نفحة من الإيمان

أساطـــير الأولين

السقا مات

موته لله

بين الأطلال

تطلب كتب المؤلف من :

مكتبة النهضة المصرية ، ودار الفكر العربى ، والخانجى بالقاهرة .

« المثنى ببغداد .

« المعارف ببيروت .

obeikandl.com

دمية أخرى

أيتها الدمية . . سامحك الله . . إنى أحبك حتى
الآن . . حتى بعد أن وضعتك فى مصاف الدمى . .
ولكن إلى متى يدوم حب الدمى ؟

obeikandi.com

عليك يا ساحرة ، أن أضعك فى مصاف الدمى .

لرهفى لهفى عليك يا حبيبة الروح أن ينتهى بك المطاف . . لتستقرى بجوار غيرك . . ولتضيفى إلى كوم الدمى ، دمية أخرى .

لهفى عليك وأنت المخلوقة الرقيقة المرهفة الحس المتأججة المشاعر . . أن أنزعك من القلب لألقى بك وسط الحطام البائد . . والرماد الخامد .

كنت أربأ بك عن هذا المصير . . كنت أنزهك عن التردى فيه ، وكنت أتشبث بك ، وأضم عليك الحنايا ، وأطبق الضلوع . كنت مصمما على أن أبقيك إلى الأبد ، كنموذج سام مرتفع يسمو عن الخطايا ، ويجل عن الهنات .

كنت مصمما على أن أجعل منك نسيجاً وحدك . . نسيجاً حياً . . غير نسيج الدمى البائدات الخامدات .

ولكن ما حيلتى معك ، وقد أبيت إلا الزلل والهبوط! ماحيلتى . . أخلق منك معبودة مقدسة . . فتصنعين من نفسك بشراً تافهاً . . أرفعك فوق الغمام فتنحدرين إلى الرغام . . ماحيلتى ! أضعك فى قلبى . . فتطايرين مع الهواء وتخرجين مع كل زفرة حارة ، وآهة ملتهبة .

ما حيلتى . . أجعل منك حبيبة الروح . . وتجعلين من نفسك دمية ؟ .

* * *

هل تذكرين قصة دمية . . بالطبع تذكرينها .

فما أظن هناك قصة كانت تشغل رأسك ، وتقلقك أكثر منها .

كنت تجزمين أن القصة حقيقة واقعة ، وكنت تكرهين بطلتها وتغارين منها ، رغم علمك أنها — بفرض صحة وجودها — قد أضحت خارج الحلبة . . وأن القلب قد خلا لك وحدك تتربعين فيه بلا شريك ولا منازع .

كانت القصة كما تذكرين تدوَر حول « فترة راحة » وكان بطلها الفنان الزوج الأب قد اندفع فى حب يائس لا أمل فيه سوى أن تهبه الحبيبة « فترة راحة » ، ولكن الحبيبة خذلته ونكصت على عقبيها . فكتب يقول لها :

« لقد اندفعت فى حبك حتى خيل إلىّ أنى أوشك أن أصل إلى « فترة الراحة » ولكنى رأيتك تنثنين فجأة وتقلبين ظهر المجن وتبدين على حقيقتك زائفة تافهة .

« ولا أكتمك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى ، وأن صدك قد آلمنى ، وتحولك عنى قد

أوجع نفسى ، واكتشاف حقيقتك عصر قلبي اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت صدك بصدمثله وصممت على أن أقتلعك من قلبي اقتلاعاً .

« وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك أو أكاد ، حتى أضحيت بالنسبة إلىّ دمية كغيرك من الدمى » .

وكان أكثر ما يقلقك . . أن تحل نهايتك معى كما حلت نهاية بطلة القصة .

كنت تخشين أن أبرأ من حبك ، وأن أنساك ، وأن تصبحى بالنسبة إلىّ مجرد دمية .

وكنت تسألينى فى لهفة :

ــ كيف سلوت صاحباتك الأوليات ؟ كيف طردتهن من قلبك ؟ . كيف كرهتهن ؟. لشد ماأخشى أن ألحق بهن ؟.

كنت تسألينى وقد جلسنا متلاصقين والصحراء العريضة قد امتدت أمامنا ساعة الغروب ، والشمس الهابطة تجر أذيالها الحمر ، وفى أقصى الأفق بدأ المنظر الساحر الذى اتفقنا معاً على أن نستوعبه فى رءوسنا قطعة قطعة ، وأن نحفظ تفاصيله وحذافيره حتى يخلد فى نفسينا هذه اللحظات السعيدة التى اختلسناها من القدر .

وإنى أذكره يا فاتنة . . كأنى أبصره أمامى ، وسأذكره

دائماً كشيء ملازم لك . . أذكر المزارع تمتد فى أقصى الأفق وراء الصحراء الواسعة خضراء باهتة . كأنها شريط يفصل صفرة الرمال عن زرقة السماء ، وأذكر المدخنة القائمة مرتفعة مستقيمة تنفث بدخانها الأسود المتبدد مع السحب ، وأذكر أكوام الرمال أمامنا التى استخرج منها الزلط ، وأذكر العربات تقلقك كلما مرت من الطريق البعيد ، فخلتها قادمة إلينا تقطع وحدتنا ، وتزعج خلوتنا .

أذكر كل ذلك يا حبيبتى . .

وأذكر وجهك الدقيق الحلو وأنفك المستقيم وطرطوفته المرتفعة التى كان يلذ لى أن أمسك بها برفق بين أسنانى كأنى أوشك أن ألتهمها .

أذكر عينيك الساحرتين المتلهفتين اللتين تقطران وجداً وتفيضان جوى وأنت تسألينى :

ـ كيف كرهتهن ؟.

ـ كرهتهن لأنهن أكرهننى على كرههن . . لأنهن كن تافهات متقلبات .

ـ كم أود أن أبقى فى قلبك إلى الأبد . . إنى لاأستطيع الآن أن أشرح لك حبى . . إنه شىء زاخر فياض ، لاتعينى الألفاظ على وصفه ، ولكن فى المستقبل قد تستطيع أن تعرف مقداره .

ـ إنى أعرفه الآن ، لأنى أشعر بمثله . . ولن يقدر على أن ينزعك من قلبى إلا شىء واحد .

ـ ما هو ؟.

ـ أنت .

ـ وكيف ؟

ـ أنت وحدك التى تستطيعين أن تنزعى نفسك من قلبى ، بأن تدميه ، وتجرحيه ، وتبدئينى بالهجر ، وتنكرى حبى ، وتستبدلينى بآخر أو بآخرين .

ونظرت إلىّ مؤنبة وتنهدت تنهيدة حارة ، وقلت فى صوت يذوب أسى :

ـ أنا أفعل ذلك ؟ ! ! ليتنى أستطيع أن أفعله . . ليتنى أستطيع أن أرفع عن نفسى عبء حبك . . حبك اليائس الذى لا أمل فيه .

ووضعت رأسك على صدرى وقلت هامسة :

ـ ولكنى عبثاً أحاول .. إنى لاأحس بالراحة إلاإلى جوارك . . أحس أنى فى موضعى الصحيح . . وأننى بت ملكك ، تفعل بى ما تشاء ، ولا شىء يمتعنى أكثر من ذلك . حبنى دائماً فإنى لا أتصور كيف أعيش من غير حبك .

ـ سأحبك دائماً .. كيف لاأحبك ، وكل مابكِ يبعثنى على حبك ؟ . كيف لا أحبك وأنا ما رأيت فى حبك لحظة شقاء ولا ضيق ؟ . كل ما ذقته من حبك سعادة خالصة لا تشوبها شائبة . . لقد أرضيت كل جارحة فى نفسى . . كيف لا أحبك وأنت تعتبرينى مخلوقاً كاملا مثالياً ؟

ـ وإنك لكذلك . وما من إنسان إلا ويعتبرك كذلك .

ـ لا . . لا . . إن عين حبك هى التى ترانى كذلك .

ولا أكاد أنتهى من قولى حتى ألمح سحابة حزن خيمت على وجهك فأسألك فى جزع :

ـ ما بك ؟

ـ لا شيء . .

ـ بل بك شيء !

ـ لا شيء أكثر من إحساس بقرب الفرقة . . كم أكره أن أتركك ولو إلى حين ، ويعلم الله ماذا يمكن أن يحدث لى عندما يقدر لنا أن نفترق إلى غير لقاء !

وضممتك إلىّ ومسحت بشفتى كل قطعة فى وجهك . . عينيك ووجنتيك ، وأنفك ، وخديك ، وذقنك ، وعنقك ، وكتفيك ، وذراعيك ، ويديك . . ثم استقررت فى النهاية على شفتيك .

* * *

حق منى أن أكرر ذلك الآن . . فما أظننى إلا كالنادب فى مأتم أو كالنائح على قبر يستدر العبرات باستعادة مامضى ويستذرف الدمع بترديد مافات .

ولكنى أؤكد لك أننى أكتب بلا عبرات ، أو عبرات جامدة فى المقلة . . ولو سالت لخففت عنى بعض الجوى ، وأذهبت عنى بعض اللوعة .

لقد افترقنا وقتذاك وأنا أشعر أننا قد وصلنا فعلا إلى « فترة الراحة » . . وأننا قد انغمرنا فيها .

وكيف لا .. وأنا ما أحسست براحة ذهنية أو روحية

أو قلبية كما أحسست بجوارك أو بمجرد التفكير فيك .

كيف لا . . ورسالتك التى أرسلتيها إلىّ بعد افتراقنا تنطق بذلك . . وتشهد به .

كيف لا . . وأنت القائلة فيها :

« لقد قلت إننى ما دمت قد سمحت لنفسى بأن أفعل معك ما فعلت . . فإن من العبث أن آمل فى سعادة أخرى مقبلة .

إننى آخذ نصيبى من السعادة الآن فلا أظن أن هناك مخلوقاً يستحقنى أو يستحق أن أهب له ما وهبت لك . . أكثر منك . . إنى لا أستطيع أن أكون مثلك فأحب عشرات الرجال .. كما أحببت أنت عشرات النساء . . وأن أستمتع بهم كما استمتعت بهن .. لأننى لا أملك إلا أن أحب مرة واحدة . . رجلا واحداً . . ولقد كنت أنت هذا الرجل . . ولا أحد سواك .

إنى أجزم لك أننى حتى لو تزوجت فلن أحاول أن أحب زوجى كما أحببتك . . قد أشعر له بنفس التقدير والاحترام الذى تشعر بهما لزوجتك .. أو أقل ، ولكننى أؤكد لك أنى لن أجسر على تقبيله أو مسه أو على فعل أى شىء من هذا القبيل . . رغم أن هناك بعض الأشياء

التى لا بد لنا من تأديتها لأن واجبنا يحتمها علينا .

إن متعتك بى لا تعادل متعتى بك . . لأنى أشعر أنى أحسو كل كأسى الآن . . إنى أفرغها حتى الثمالة . . إنى أستمتع بضمة ذراعيك وحرارة شفتيك وبكل شىء فيك .

لقد كنت دائماً أقول لنفسى إنى لا بد فاعلة ذلك مع أحدهم ، ومادمت أنت الآن ـ وستكون دائماً ـ أعز الناس على نفسى وأقربهم إلى قلبى . . فلا أظننى أكون بمخطئة إذا ما فعلته معك .

إن الحياة قاسية ياحبيبى ولا أظننا نملك إزاء قسوتها إلا أن نختلس المتعة من حاضرنا فنقبل على بعضنا قدر مانستطيع ونمتع أنفسنا قدر ما يمكننا .. وأن يثق كل منا بصاحبه دائماً .

إنى أثق بك برغم أنى لا أثق قط برجل فى هذه الدنيا ، كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى أبداً .. أبداً .. ولنحفظ حبنا صامتاً فى قلوبنا مستعراً فى حنايانا دون أن يشعر به أحد ممن حولنا .

وليساعدنا الله .

المخلصة

. . .

* * *

أجل يا أختاه . . ليساعدنا الله . . ولكن علامَ ؟!! .

على الحب ؟ ! أو على الخلاص من الحب ؟!! .

أما أنت . . فأغلب ظنى ـ رغم محاولتك الإنكار ـ أنك قد تخلصت منه .. أما أنا .. فإنى أدعوه ليل نهار ، أن يخلصنى منه ، ولكن الله لا يستجيب دعائى .. فإن الذهن قد يغفو عن ذكرك لحظة ، ولكنه لا يلبث أن يندفع وراءك يلاحقك ويطاردك ، فيصيب القلب منك ما يشبه الغثيان وتغرق النفس فى ظلمة من الحزن معتمة .. وأكاد لولا بقية من جلد ، ومسكة من الإباء والخجل ، أن أندفع فى البكاء .

لقد قلت فى رسالتك كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى أبداً . .

وأنا أقرأ الآن جملتك . . ولا أملك أن أمنع ابتسامة مريرة من أن تتخذ طريقها إلى شفتى .

أنا أخذلك ؟ ! لشد ما ظلمتينى برجائك .

والآن . . أيتها العاشقة الولهى . . المحبة إلى الأبد . . من منا الذى انثنى عن صاحبه وتركه فى منتصف الطريق . . أوعلى الأصح فى منتصف فترة الراحة .. أنا ؟ . أم أنت ؟ .

لقد فعلت بالضبط كل ماحذرتك من فعله ، لقد أنزلت بى من العذاب والألم ما لو سلطه علىّ ألد أعدائى لعجز عن

إنزاله بي . . لقد ارتكبت معي جريمة قتل . . معنوى . . روحي . . قلبي .

لقد قذفتني من حالق . . وأشعرتني بمنتهى التواضع ، وقد يكون هذا بعض ما تستحقين عليه الشكر ، إذ لا بد للإنسان من بعض الصدمات التي تعيده إلى نفسه وتجعله يفيق من غروره .

ولكن أكنت أنا حقاً مغروراً ؟ يعلم الله إن قلت لك مائة مرة إني لا شيء . . ولكنك كنت تأبين إلا تأليهي . . واتهامي بالعبقرية والنبوغ . . سامحك الله وعفا عنك .

والآن . ماذا فعلت بي ، وما الذي حدا بك إلى فعله ؟

كل ماحدث بيننا سوء تفاهم لايمكن أن يخلو منه عاشقان ولست أظن هناك فائدة من سرد تفاصيله ، ولكن أذكر أن أقصى مافعلته بك هو أني غضبت عليك لأنك لم تستطيعي لقائي ، ورفضت أن آخذ منك تذاكر لمشاهدة حفل كنت ستقومين بالتمثيل فيه .

أفعلت أكثر من هذا ؟ ! .

فماذا فعلت أنت ؟ .

وأنت هذه تحتاج إلى بعض الضغط والتأكيد . . والشرح والتفسير .

أنت . . القائلة إنك ستتبعينى إلى أقصى الأرض . . القائلة بأنك لست مثلى . . أنا المتقلب المتحول . . العاشق لعشرات النساء . . لست مثلى لأنك لم تحبى ، ولن تحبى سوى رجل واحد . . هو أنا .

أنت المرتجفة خوفاً من أن أنساك . . الغير مصدقة إنى أحبك حقاً .

أنت .. وأنت تعرفين أكثر من كل مخلوق .. ما كنت وما قلت ، وما كتبت ، وما فعلت .

بعد كل هذا أيتها العاشقة الوفية .. ماذا فعلت بعد أول خصام بيننا ؟ . . لقد كتبت إلىّ رسالة وداع تقولين إنك تكرهين أن تنهى ما بيننا . . وأنك مازلت تحبيننى ، وأنك برسالتك تنهين لقاءنا ، ولكنك لا تنهين حبنا وأنك ستظلين تحبيننى بينك وبين نفسك حتى تتحاشين الزلل والخطأ ، وحتى يستريح ضميرك .

وكان كتابك — والحق يقال — قطعة رائعة فى الوداع ولم أملك إلا أن أرد عليه بمثله .

ومع ذلك — ورغم أننا أعلنا الوداع بالرسائل — فقد كنت غير مقتنع بأن ما بيننا يمكن أن ينتهى حقاً بمثل هذه السهولة . . بمجرد رسالة منى ورسالة منك . . كنت واثقاً

ـ لاسيما وقد قلت إنك لازلت تحبيننى ـ أن الحنين العائد والشوق الزائد لابد معيدان كلا منا إلى صاحبه .

وبعد بضعة أيام حادثتك فى التليفون . . لأطلب منك لقاء قصيراً . . فقد كنت واثقاً أن مجرد لقاءنا سيذهب كل ما فى نفسينا .

فماذا قلت لى فى التليفون ؟ .

قلت لى إنك مشغولة . . وأنه ليس لديك وقت . . وأنك لاتستطيعين لقائى . . ولا الحديث معى ، . وأنه كان يجب أن أعرف أن كل مابيننا قد انتهى . . ثم . . ثم أغلقت السماعة فى وجهى .

وأمسكت بالسماعة برهة ، وأنا أنظر إليها فى عجب وذهول . . ثم وضعتها فى مقرها فى صمت كأنى أضع ميتاً فى نعشه .

إن الأمر قد يحدث لأى رجل . . ومن أى امرأة . . وحاشاى أن أستكبر وأغتر فأقول إنى لست أنا الذى تعوّد من النساء القسوة والهجر والخذلان .

ولكن منك أنت . . لى أنا . . كان أكثر من أن يحتمل كان مذهلا . . كان قاتلا .

أنت . . يا رقيقة الحاشية ، يا مرهفة الحس . . يا ملتهبة

العاطفة ، يا ذائبة القلب . . يا من تتمنين ألا أخذلك .

ومع ذلك فقد احتملت الصدمة . . ولم أحاول ردها لك .. ولم يكن أمامى سوى الاحتمال . لأنى مازلت أحبك .

والتقينا بعد ذلك لقاءاً قصيراً عابراً . . وقلت لك فيه إنى ما زلت رغم ماحدث أحبك . . فهززت رأسك وقلت « كأنى لا أفعل » .

أجل . . لقد قلت إنك أيضاً مازلت تحبيننى رغم كل ما حدث .

هكذا كان قولك . . أما فعلك فقد كان يكذبه تكذيباً قاطعاً . . لأنى عندما لقيتك ثانية . . مددت يدى لمصافحتك ـ لأنى كنت أعتقد أننا نستطيع على الأقل أن نكون أصدقاء ـ فلم تمدى يدك .

وأحسست بخجل شديد وقلت لك :

ـ إنها أول مرة أمد يدى فلا تلقى يداً .

ـ كان لابد أن يحدث ذلك فى يوم ما .

ـ كنت أود ألا يكون منك أنت !

وأحسست بالخجل فمددت يدك ، وصافحتنى ، ولكن بعد أن أحسست أن كبريائى قد تحطمت .

وبعد لحظات أنزلت بى الضربة الأخيرة .. والقاضية ..

فلقد رأيتك تجلسين مع آخر ، وقد بدت عليك أقصى آيات البشاشة والرضاء والهناء .

وفى اليوم التالى تكررت منك اللطمة . . وأحسست أن الأمر بيننا قد انتهى فعلا .

* * *

وهكذا فقدت كل أمل فيك ، ولم يبق لى من أمل فى غير الله . لقد لجأت إليه بعد طول ذنب وعصيان ، وزلل وخطايا أسأله أن ينقذنى منك ومن نفسى ، وينسينى إياك .

وأنا صبور .. شديد الجلد ، قوى الاحتمال ، ولكن الصدمة كانت أقوى من الصبر وأشد من الجلد . . لقد تركتنى ممروراً منهارا .

لقد كانت المسألة أشد من أن تكون مجرد فشل فى حب .. لقد بدد انقلابك من النقيض إلى النقيض كل إيمان لى بالحس البشرى ، والشعور الإنسانى . . لقد كنت مخطئاً من الأصل فى حبك . . ولكن كان يعزينى أنى مساق بحسى المرهف .. وقلبى الذى لا يهدأ .. وكنت أرى فيك صورة لنفسى .. فلما خذلتنى جعلتنى أشعر كالغريب الضال وأحس أنى بين الناس شاذ فى مشاعرى وفى حسى .

وحاولت جهدى أن أخفى صدمتى — وأن أبدو

بين الصحاب كما أنا ـ ولكن صاحبي أدرك ما بي فقال ناصحاً مؤنباً :

ـ أنت السبب في كل ما حدث .

ـ كيف ؟

ـ لم تعرف كيف تعاملها .

ـ وماذا كنت تريدني أن أفعل ؟ .

ـ إني أذكر أقصوصة عربية قد تعطيك درساً مفيداً . زعموا أن أعرابياً سأل عنترة بن شداد عن سر شجاعته فقال له : ضع أصبعك في فمي وسأضع أصبعي في فمك، ففعل الأعرابي . فقال له عنترة : فليعض كل منا الآخر ، وبدأ كلاهما في العض فصرخ الأعرابي من الألم ولم ينبس عنترة ببنت شفة . . وترك أصبع الأعرابي قائلا : هذا هو سر شجاعتي . . إن ألمي يعادل ألمك إن لم يكن أشد . . ولو لم تصرخ أنت لصرخت أنا ، ولكني استطعت أن أحتمل حتى صرخت أنت فبدوت أنا أكثر شجاعة .

وصمت صاحبي برهة ثم أردف :

ـ وهكذا كان يجب عليك أن تفعل . إنها تعض على أصبعك فعض على أصبعها وإياك أن تصرخ حتى تصرخ هي وتسألك العفو واللقاء .

وهززت رأسى ، إن صاحبي لا يفهمنى، وشر ما فى الأمر الأمر أنه ليس هناك مخلوق يمكن أن يفهمنى . . إلا مخلوق واحد . . هو أنت .

أبعد هذا سخرية ؟ ! أنت وحدك التى كان يمكن أن أشكو إليك نفسك فتفهمينى وتقدرين أساى وحزنى .

ولقانى صاحبى بعد هذا فسألنى :

ــ كيف حال أصبعك ؟ .

فأجبته ضاحكا :

ــ الألم يشتد به يوماً بعد يوم .

ــ اصبر واستمر فى العض .

ولكنى لم أحاول أن أعض لأنى أكره ــ بعد كل مافعلت ــ إيلامك ، ولم يكن أسهل علىّ من أن أحاول عضك ، وأن أكيل لك بنفس الكيل ، وأنت تعرفين أن الصديقات اللاتى يحاولن إغاظتك باجتذابى إليهن كثيرات .. وتعرفين أكثر من هذا مدى إيلامك عند ما ترين صاحباً لك مع فتاة أخرى ، فما بالك بصاحب .. تحبينه أو كنت تحبينه .

لم أحاول إيذاءك . . وصممت على أن أحتمل الأمر ، وأصبر على الصدمة وأن أنساك .

وعندما سألنى صاحبى آخر مرة عندما أنزلت بى ضربتك القاضية :

ـ كيف حال أصبعك ؟ .

ـ لقد قطع . قلت له :

ولم يكن فى الواقع أصبعى ، بل كان قلبى .

إنى أحس به يدمى وينزف .

ولكن لابد لنزيفه من نهاية .

أيتها الدمية . . سامحك الله .

إنى أحبك حتى الان . . حتى بعد أن وضعتك فى مصاف الدمى .

ولكن إلى متى يدوم حب الدمى ؟! .

* * *

ووضع الكاتب قلمه وجمع الأوراق فطواها ، وهمّ بالضغط على زر الجرس ليستدعى الحاجب حتى

يعطى له القصة لتسليمها إلى المطبعة . . فى الوقت الذى دفع الحاجب الباب وبيده بضعة خطابات ووضعها على المكتب .

ومد الكاتب يده بالأوراق لتسليمها للحاجب عند ما لمح خطها المكتوب على أحد الظروف فجذبه بحركة عصبية مفاجئة . . وأعاد الأوراق إلى مكتبه ثم أمر الحاجب بالخروج والإنتظار .

وفض الكاتب الخطاب بسرعة وأخذ فى القراءة . .

* * *

« أتذكر القصة التى كتبتها لك عن حبنا ؟ والتى جعلت فيها البطلة — التى هى أنا — تموت فى نهايتها بداء الصدر . . أتذكر رأيك فيها وقتذاك ، عند ما قلت لى « إنّك تحبين حبك وتفزعين أن تريه إلى نهاية ، ولذا فضلت أن تضعى حداً لحياتك حتى لا ترين نهاية حبك » .

إنى الآن فى مثل هذا الموقف ، أرى نهاية حبى ، ولكن لا أستطيع أن أضع لحياتى نهاية . . إن القدر يأبى علىّ تلك النهاية التى منحتها لبطلة القصة . . فقد جعلنى سليمة معافية أرقب ذبول حبى ، ولا أستطيع أن أغمض عينى حتى لا أراه .

إن أمامى الآن . . قصتك « دمية » . . أقلبها بين يدى وأقلب نظرى بين سطورها .

كم أحس بالألم والمرارة ، وأنا أرانى قد زججت بنفسى بمنتهى الحمق فى موقف بطلتها .

كم أحس بالانهيار وأنا أجد نفسى قد بت لديك مجرد دمية.

كنت بلهاء حمقاء حينما حاولت أن أنتهز فرصة خصامنا لأنهى حبنا . . أجل . . لقد ظننت فى ساعة غضب عليك أنى أستطيع التخلص منه وصممت على إنهائه . . فقد كنت أعرف مبلغ ثقله عليك وعلىّ ومبلغ خطيئتنا به وخشيتنا منه.

وذكرت ماقلت لى من أنه لن ينزعنى من قلبك وينسيك إياى إلا أن أبدأك بالهجر ، وأنكص فى حبك وأستبدل بك آخر .

وصممت على أن أبدأ التجربة . . تجربة إنقاذك من حبى .. وإنقاذى من حبك .. وأخذت فى صدك وهجرك .. واستبدلت بك آخر . . تماماً كما قلت لى .

ويبدو لى أن الظروف كانت قد تآمرت علىّ . . فقد تقدم إلىّ أحدهم وقتذاك لخطبتى ، ولم يكن هناك غبار عليه . . بل كان فى عرف أهلى يعتبر « لقطة » .

وقد وجدت فيه أنا من وجهة نظرى خير « لقطة » تعاونى على تنفيذ خطتى ، وعلى وضع حد حاسم لما بيننا . . لا سيما وأنى كنت أخشى أن أضعف أمامك ، فأنكص على

عقبي . . وأعاود الإنغماس فى حبك بطريقة أشد عنفاً وأكثر قوة .

ولم أحاول قط أن أفكر فى ذلك الخطيب .. أو أنظر إليه بعين فاحصة . . إذ كان لدىّ مجرد وسيلة للخلاص .

وبين عشية وضحاها أضحيت زوجة .. واعتبرت أنى قد انتهيت منك تماماً .

ومع ذلك . . .

أجل . . ومع ذلك . . لم أكد أفيق من غمرة الزواج وإجراءاته . . حتى وجدت نفسى أشبه بالمجنونة .

أشبه ! ! إنى مجنونة فعلا !

ما هذا الذى فعلته ؟ . .

لقد دمرت حياتى بعملين أحمقين .

أولها .. إننى أحببتك . ولكن عذرى فى هذا : إنى لم أكن مجبرة فيه بل مدفوعة إليه على الرغم منى . . أما الثانى ، الأشد حمقاً ، والذى فعلته بمحض إرادتى ، فهو أنى هجرتك وآذيتك وحطمت كبرياءك . . وفعلت بك شر ما يمكننى فعله ، ثم تزوجت بعد كل هذا بمنتهى البساطة .

أهذه هى محاولتى لإنقاذ نفسى ؟ ..

ياللحمق ويا للجنون ؟ .

إنى أعرف أنى قد فقدتك تماماً . . وهذا هو ما يجعلنى أكاد أجن . . ويزداد جنونى عند ما أقارنك بهذا المخلوق التافه الذى تزوجته . . وعند ما أذكر السعادة العميقة التى كنت تمنحنيها بمجرد لمسة يدك .

إنى لا أطيقه . . ولا أطيق رؤيته أو القرب منه .

لو تركت لنفسى لفررت عائدة إليك ضاربة بكل شىء عرض الحائط . . ولكنى أعرف أنى فقدت قيمتى لديك وأعرف أنك حتى لو حاولت التظاهر بحبى . . فلن يكون ذلك أكثر من وفاء منك ورفق بى . . أما حبك المتأجج المستعر فإنى موقنة تماماً أنى قد فقدته ـ بعد كل ما فعلت ـ إلى الأبد .

ما قيمة حياتى ؟ . . وأنا أرى نفسى ميتة لديك ؟.. لقد كنت أحب الحياة من أجلك فماذا يغرينى بها بعد أن فقدتك؟ أليس الموت منقذاً لى ؟ . أليس خير ما ينعم به القدر علىّ هو خاتمة كخاتمة بطلة قصتى ؟ .

ولكن القدر ضنين حتى بالموت عندما نريده .

أجل .. إنى أريد الموت ! .. لأنى أعرف أنه سيحيينى لديك . . إنى واثقة أنى لن أستعيد مكانتى فى نفسك إلا بعد الرحيل .

إنى أفضل أن أكون حية فى قلبك ، ميتة أمام الناس .. من أن أكون ميتة فى قلبك حية أمام الناس ! .

كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى . . بعد موتى . . وأن تجعل حياتى المفقودة لها ثمن . . هو حبك .

أحببنى يا حبيبى كما أحببتنى دائماً .. حب جارف فياض متأجج مستعر .

إنى مازلت أثق بك .

وأرجوك أن تثق بى .

ثق أنى كما قلت لك . . لا أملك إلا أن أحب رجلا واحداً وهذا الرجل . . هو أنت .

وأرجو بعد ماقلت لك ألا تضعنى بعد موتى فى مصاف الدمى . . لأن الدمى لا تموت .

وخير لى أن أكون حبيبة راحلة . . من أن أكون دمية باقية »

« المخلصة »

* * *

ولأول مرة يذوب جامد دمعه .. فتتساقط عبرتان على الرسالة ويدق الجرس ، ثم يطوى الرسالة مع القصة ويسلمها للحاجب وهو يقول فى شبه همس :

— هاكم دمية أخرى . .

خطيئة أم!

فرت أمى .. فخلفت لنا فجيعة ما بعدها فجيعة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة عن إحساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار فنحس بأثر لغيبتها ، بل كانت فجيعتنا هى فجيعة عار وفضيحة . . .

obeikan.com

خطيئة امرأة بلا زوج وبلا أطفال . .

وخطيئة امرأة ذات زوج . .

وخطيئة امرأة ذات زوج وأم أطفال .

ولو جمعت كل خطايا الأرض لما ساوت خطيئة الثالثة .

إن لم تصدقونى فاقرأوا هذه القصة .

هى قصة نفس مرهفة معذبة . ألقت عليها الحياة عبء غيرها . . فأثقلت به كاهلها . . وأنقضت به ظهرها . . نفس مرهفة حساسة . . طوت بين الضلوع مرارة أحزانها . . وجمرة أساها . . حتى كاد يحرق صدرها ويتركها هشيما ورماداً .

حدثتنى صاحبة القصة فقالت :

— أمى . . ياسيدى . . هى علة الشقاء . . ومنبع الداء .

أمى التى كان يجب أن تكون عونى فى الحياة . . كانت عوناً لها علىّ .

أمى التى كان يجب أن تبعد عنى الشقاء وتقينى الشر . . وتجنبنى الهموم . . لم يكن لى فى الحياة هم سواها . . كانت شقائى . . وكانت علتى .

أى إنسان لم يجد بين أحضان أمه ملجأه ؟ . . وعلى صدرها راحته ؟ لقد كنت أعتبر نفسى « يتيمة بلا أم » . . وكنت أعدها فى عداد الأموات . . ولكن حتى هذا اليتم لم ينعم به الله علىّ . . فقد كنت أدرك فى قرارة نفسى أنها ما زالت حية تسعى . . وأننا — بعد طول فرقة — قد نلتقى فى أية لحظة .

لا تقل أن فى نفسى غلظة وقسوة . . ولا تقل عاقة جاحدة . . ملأت نفسها المرارة فهى تفيض بها على ما حولها . . لا . . ولا تقل لى إن « الجنة تحت أقدام الأمهات » . . فما خلفت لى أمى سوى جحيم يستعر لهيبه ، وتتأجج ناره .

فارقتنى وأنا فى الثامنة . . فارقتنى فلم أستشعر لفرقتها كثير لوعة . . وغابت عن الدار . . فما خلف غيابها فراغاً يحس به ، إذ كانت لا يستقر لها فى الدار قرار . . كانت أبداً فى انطلاق دائم . . لا تأوى إلى الدار إلا للنوم والأكل والتزين .

دعنى أعرض لك صورة لما كنت أراه وقتذاك بعينى وأنا طفلة منذ أكثر من عشرين عاماً . . أم وأب فى عراك دائم وتطاحن مستمر . . لست أدرى أيهما المخطىء

أو أيهما المصيب .. ولا أيهما المعتدى أو أيهما صاحب الحق .. ولكن كل ما أعرفه أنى كنت أنجو بنفسى من تلك المعارك ، وألوذ بأحضان ــ الحاجة ــ الخادمة العجوز ، فأدفن رأسى فى صدرها حتى تأخذنى سنة من النوم .

إنى لأذكرها تماماً . بالرغم من تلك السنين الطوال التى طواها الزمن . أذكرها .. كامرأة غريبة لا كأم .. فما أذاقتنى طعم الأمومة قط . فقد نضب فى نفسها معين من الحنان .. أو قل إنها لم تجد من وقتها فراغاً تستطيع أن تشعرنى فيه أنها أمى .. لا أظنها كانت قاسية .. ولكن كل ما فى الأمر أن فرط تعلقها بذات نفسها كان يستغرق كل وقتها ، ويستنفد كل جهدها .. فهى لا ترى سوى نفسهـــا .. ولا تعنى إلا بنفسها .. ولا تمتع إلا نفسها .

لا أظننى كنت وقتذاك أستطيع فهمها كما أفهمها .. فما كنت أحاول أن أفهم شيئاً .. وما كنت أعرف أن هناك شيئاً اسمه الأنانية .. وأن هناك شيئاً اسمه الشر .. ولكن كل ما كنت أعرفه ، هو أن ــ الحاجة ــ كانت أقرب إلىّ منها .. وكانت أكثر حناناً ، وأشد حباً .

كانت أمى امرأة جميلة .. من النوع الذى لا تخلف فيه السنون أثراً .. فما كانت تبدو أماً حتى ولا زوجة .. بل فتاة

مرحة لأهية . لاترهل فى جسدها . ولا تهدل فى صدرها . بل تماسك واستواء . . ونضج وامتلاء . . ولقد قالوا لى إنها لم ترضعنى خوفاً على ثدييها من التلف . . والله أعلم ما فى قولهم من الصدق . . وإن كنت أنا لا أستبعده . ! !

ويخيل إلىّ أنى قد ورثت عنها الكثير من ملامحها . . فلقد كانت — الحاجة — كثيراً ما تنبئنى بأننى شديدة الشبه بها . وكم أقض قولها هذا مضجعى .

كنت لا أراها فى الدار إلا منهمكة فى تصفيف شعرها . . أو فى وضع المعاجين والمساحيق على وجهها . . أو فى تزجيج حواجبها بملقاط بين أصابعها . . أو فى إزالة الشعر عن ساقيها وعن جسدها . . أو فى طلاء أظافر يديها وقدميها . . حلقة مفرغة لا تنتهى منها أبداً . . تستغرق منها كل وقتها ، أو كل هنيهاتها التى تقضيها فى الدار أثناء اليقظة .

وكنت أحس بأنها كانت تفعل أشياء . . لم أكن أعرف بالضبط ما هى . . إن كنت لا أدرك بإحساس هاجس . . أنها أشياء غير مشرفة . . أشياء مما لا يصح عملها إلا فى الخفاء . . ويخيل إلىّ أن — الحاجة — كانت تعرف تلك الأشياء وتكرهها . . وتكره أمى من أجلها . . وتحتقرها بينها وبين نفسها وتزدريها وإن كانت بالرغم من ذلك تحاول التستر عليها .

كان يخيل إلىّ فى بعض الليالى ، أن هناك زائراً يزورنا فى الليل خلسة ، وينصرف قبلما يحضر أبى ، وكنت آوى إلى فراشى مع — الحاجة — فأسألها عمن يطرق الباب فتنبئنى بأنه بائع اللبن . . أو الكواء . . وتطلب منى أن أنام . . ولكن كنت لا أنام ، بل أرهف السمع ، فيدهشنى أن الكواء كأنه قد تسلل إلى داخل البيت ، ومكث فيه . . ثم يهاجمنى النوم ، فأروح فى سبات عميق ، لا أدرى بعده ماذا يفعل الله بالكواء ، أو ببائع اللبن .

هل كانت أمى تخدع أبى وتفعل ما يحلو لها من ورائه ؟ . هل كان أبى يعرف ؟ . .

من كان أبى ؟ ! .

أبى — الذى أعرف أنه أبى — كان مدرساً . . ثم ناظر مدرسة . . كان رجلا من رجال العلم والتربية .

أترى رجال العلم والتربية كلهم كأبى ؟ أتراهم دائماً عابثين متجهمين . . لا يستطيعون أن ينسوا لحظة أنهم مدرسون ونظار ؟ أتراهم لايرون فى كل من حولهم إلا تلاميذ ؟ . وعليهم أن يؤدوا لهم كل واجبات التبجيل والاحترام ؟ أتراهم يعتبرون أن كرامتهم لا تحفظ إلا بالتجهم ؟ وأن هيبتهم لا تصان إلا بالتزمت والتكشير ؟

أقسم لك بأنى ما رأيت أبى يضحك قط .. ولم أكن أكرهه .. ولكنى كنت أتمنى أن يكون خيراً من ذلك .. كنت فى حاجة إلى من يدللنى ويعطف علىّ .. فلا أظن من السهل على طفلة أن تجد إهمالا من الناحيتين .. الأم والأب .. فالمعتاد هو أن يعوضها أحدهما بحنانه عن الآخر.

فإذا كان الأب جاداً عبوساً . كانت الأم حنوناً رقيقة .. وإذا كانت الأم لاهية عابثة .. كان الأب ليناً عطوفاً .. أما أن تكون الأم مشغولة بصقل جسدها . وتزجيج حواجبها والمحافظة على بروز صدرها .. وأن يكون الأب منهمكاً فى إحاطة نفسه بهالة من الاحترام والمحافظة على هيبته وكرامته .. فذلك ما لا يحتمل .

وهكذا مرت بى الطفولة وأنا مهملة منسية .. حتى كان ذات يوم .. وكانت الكارثة .. ووقعت الواقعة .. ففرت أمى مع عشيقها .. زائر الليل الذى أفهمت أنه بائع اللبن تارة ، والكواء تارة أخرى .

فرت أمى .. فخلفت لنا فجيعة ما بعدها فجيعة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة عن إحساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار فنحسّ بأثر لغيبتها .. أو نشعر فراغاً لافتقادها .. بل كانت فجيعتنا هى فجيعة عار وفضيحة .

تصور ياسيدى .. أبى .. الرجل الجاد العبوس .. القويم الخلق . . الذى يحلق بنفسه فى برج عاجى من الهيبة والكرامة . . والذى لا يهمه شىء فى الحياة قدر أن يحترمه الناس . . تصوّر هذا الرجل .. وقد فرّت زوجته مع عشيق لها . . . وتركته وراءها لقمة سائغة تلوكها الألسن . . وتمضغها الأفواه .

لقد كان وقع المصاب عليه أشد من أن يوصف . . وأصاب منه موطناً حساساً . . فأضنى نفسه وأدمى قلبه . . لقد هدّ كيانه وحطمه تحطيماً . . فبدا عليه الهزال والكبر كأنما هو قد زاد عمره فجأة عشرات السنين .

هكذا كان وقع المصاب بالنسبة إليه . . أما بالنسبة إلىّ . . فماذا أقول لك ؟

حقيقة أنى كنت طفلة فى الثامنة . . وأنى لم أكن على شىء من الوعى الذى يتيح لى أن أحس بمرارة الفضيحة . . ولكنها مع ذلك أوجعتنى . . وكان أوجع ما فيها أن مرّ الزمن — الذى يحمل فى طيه بلسم النسيان — لم يحمل لى فى طيه نسياناً قط . . بل كان كلما أمعن فى المرور . . وكلما ازددت وعياً وازددت فهماً . . تزايدنى الإحساس بالفضيحة . . وتمادى تأثره على حياتى .

كان أول تأثير لها علىّ . . هو تلك النظرات العجيبة . . التى أضحى يوجهها إلىّ أبى . . نظرات الريبة والشك والحيرة والقلق .

هل كان يشك فى أنى لست ابنته ؟ جائز جداً ؟ وماذا يمنعه من هذا الشك ؟

وقد كانت أمى ، هى أمى . . الخائنة الخادعة التى لوّثت شرفه وطعنته فى كرامته . . من يدرى أنى لست ابنته وهو لا يعرف متى بدأت أمى خديعتها له . . ومتى بدأت تلقى بنفسها فى بؤرة الفجور؟ . ماذا يمنعه من الشك . . وأنا — لسوء حظى — لا أكاد أحمل منه لمحة شبه . . فهو لا يجد فىّ إلا صورة مصغرة منها ؟

لقد ملأه المصاب نفوراً منى ، وتباعداً عنى . وكان يخيل إلىّ أنه لا يرى فىّ سوى أثر الخطيئة .. أو على الأقل مصدراً لشكوك تساوره . . وريبة تملأ قلبه . ولقد كان معذوراً . . فلولاى لاضمحلت ذكراها فى رأسه .. ولاستطاع أن ينسى . . ولكن وجودى أمامه وشدة شبهى بها . . كانا ينكآن قرحه ويدميان جرحه .. إن صدراً واحد هو الذى استمر يأوينى ، ويفيض علىّ بحنانه . . هو صدر — الحاجة — العجوز التى أخذت تعيننى وتشد أزرى .

وانتقلنا من مسكننا إلى مسكن آخر مبتعدين عن جيراننا الذين عرفونا وعرفوا فضيحتنا .. ولنستبدل بهم آخرين لايعرفوننا ولا يمضغوننا بأفواههم .. آخرين نستطيع أن نخفى عليهم أمرنا .. واستبدلت مدرستى بأخرى .. فقد كنت أحس بأنى لا أستطيع رفع رأسى بين صاحباتى القديمات . وكنت أنأى بنفسى عنهن وأجلس وحيدة فما أكلم واحدة منهن .. وما أن واحدة عرضت فكلمتنى .. يملأ نفسى إحساس بالذل .. وشعوراً بالهوان .. تماماً كأنى أنا التى ارتكبت وزر أمى .

وبدأنا الحياة فى مسكننا الجديد .. وذهبت إلى مدرستى الجديدة بعد أن أمرنى أبى بأن أقول للناس إذا ما سألونى عن أمى أنها ماتت . ولم أحس من قراره بضيق ولا بغضاضة فقد كان هذا خير ما يمكن أن يقال .

ومرت الأيام .. وعلم كل من تعرّفت بهن من صديقاتى الصغيرات أن أمى ميتة . وبدأت أحس بالكثير من الراحة والاطمئنان .. وإن كان ينتابنى خوف بين آونة وأخرى من أن أمى مازالت على قيد الحياة وأنها قد تظهر مرة ثانية فى أفق حياتنا فتجدد فضيحتنا وتعيد تلويثنا .

وذات يوم حدثت فى المدرسة حادثة تافهة .. ومع ذلك

فقد نكأت جرحى وسببت لى ألماً شديداً .

كنت وقتئذ فى الرابعة عشرة .. وكانت المدرسة على أهبة أن تقوم بحفلتها السنوية .. وكنت سأشترك فى تمثيل إحدى الروايات التى كنا سنقوم بتمثيلها فى الحفلة .

وبدأت المدربة بتوزيع الأدوار .. ووقفت بين صاحباتى منتظرة دورى ، ورأيت السيدة ترفع أصبعها وتشير إلىّ ثم تقول ببساطة : ستقومين أنت بتمثيل دور الزوجة الخائنة .

وأحسست بأن الدماء قد تصعدت فى وجهى .. وأن رأسى من فرط الحرارة التى تعمل فيه على وشك الالتهاب .. وأحسست بغصة فى حلقى وبغشاوة على بصرى ، وصمت لحظة ثم انطلقت صائحة فى غضب جنونى دون أن أدرى ما أنا قائلة : « أنا لست خائنة » .

وبهتت السيدة للوهلة الأولى .. وبهتت الفتيات من حولى ، ومضت لحظة قصيرة ساد فيها السكون وعم الدهش . وكانت لحظة قصيرة جداً .. ثم لكن أنفسهن بعدها .. ثم استغرقن فى الضحك . وأخذن يتندرن بى ساخرات قائلات : « هذه هى الزوجة الخائنة » .

وعصفت بى نوبة من البكاء لم أستطع مقاومتها .. وأمرت المدربة الفتيات بأن يكففن عن مزاحهن .. وأفهمتنى أنها

واثقة من أننى خير الفتيات . . وأن هذا مجرد تمثيل . . وأنها ستعطى الدور لفتاة أخرى . . مادام هذا يؤلمنى .

عدت إلى البيت وبنفسى انهيار تام ورغبة فى البكاء . . وارتميت فى أحضان ـ الحاجة ـ باكية . . وأنبأتها بما حدث . . فضمتنى إليها . وأحسست لأول مرة بدموعها الساخنة تنساب على صفحة وجهى . . وقالت بصوت ملؤه الرقة والعطف :

ـ يا حبيبتى . . أنت سيد الناس . . وستتزوجين من سيد الناس .

وهمست أجيبها فى صوت مرير :

ـ ابنة الخائنة . . لا تلتقى بسيد الناس أبداً .

ومع ذلك فقد التقيت به . . سيد الناس بلا جدال . . وأحسنهم خلقاً وخلقاً . . فتى يقطن الدار المجاورة . . هادىء الطبع ، جم الأدب . . وكان طالباً فى كلية الطب . . ولم أكن أحس بوجوده بالرغم من تقارب دارينا . . حتى كان ذات يوم أصيب أبى بنوبة إغماء . . وأصابنا جزع شديد . . وخرجت ـ الحاجة ـ فزعة مرتاعة . . تستغيث بأقرب مخلوق فصادفها الفتى خارجاً من داره وسألها عما بها فأنبأته . . ودلف معها إلى الداخل . . ففحص أبى وقام بإسعافه . . ثم خرج لإحضار أحد الأطباء .

وعاد مع الطبيب الذى أنبأنا بأن أبى قد أصيب بشلل . وأشار ببعض أدوية .

ومنذ ذاك اليوم بدأت أحس بتغيير كبير طرأ على حياتى ، وكان منشأ ذلك التغيير . . أمرين : أبى . . وصاحبى .

أما عن أبى فقد بدأ يتحول إلى آخر . . وبدأت أحس لأول مرة فى حياتى ، بعطفه وحنانه . لست أدرى أكان ذلك صدى لما أبديته من جزع عليه وتفان فى خدمته ، أم إحساس بأنه قد ظلمنى بطول إهماله وتباعده وشكه وريبته ؟ على أية حال لقد أحسست أننى أحبه ، وأنه مخلوق طيب . . وأن أمى هى المسئولة عن كل ما به . . وأنها كانت تستطيع أن تجعل منه إنساناً بشوشاً مرحاً ، لو كانت امرأة طيبة عاقلة .

أما عن صاحبى . . فقد ألقى على حياتى شعاعاً بدد ظلماتها وجعلنى أحس بأن الحياة جميلة باسمة . . وشغلنى التفكير فيه عن التفكير فيما عداه . . ولأول مرة فى حياتى بدأت أحس بلذة التفكير . . ولو قال لى إنسان قبل ذلك إن للتفكير لذة لقلت عنه إنه مجنون . . ما كان أمتع التفكير وقتذاك ! . وما كان أعجب تلك اللذة التى أنسجها من خيوط الفكر والخيال ! . وما كان أقدرنى على أن أمتع نفسى بنفسى ! كان يكفى لكى أغمر نفسى بالسعادة وأحيطها بالنعيم . . أن

أتذكره . . أن أتذكر تقاطيع وجهه . . وبسماته وضحكاته . وحركاته ولفتاته . كيف ينظر إلىّ ؟ . . ماذا قال لى ؟ أذكر كل كلمة وأتصور كل نظرة . ما كانت أرخص السعادة وقتذاك ! وما كان أسهل الحصول عليها ! لقد كانت تأتى من نبع دافق . . ومورد فياض .

ومرت الأيام وعلاقتنا بحيراننا تتوطد يوماً بعد يوم . . ونشأت بين أبوينا صداقة توثقت مع الأيام عراها . . وذهبت لزيارة أمه . . فإذا هى سيدة كاملة . . نموذج لزوجة وأم . . بل نموذج لما يجب أن تكون عليه كل امرأة فى رقتها وطيبتها . . وحلاوة لسانها . . وطلاوة حديثها . . لا تبغض أحداً ولا تنهش عرض أحد . . تحب الناس جميعاً ، وتمدحهم جميعاً . . لا تذكر إلا حسناتهم ، أما الهنات فلا تراها .

التقيت بصاحبى ذات مرة وجلسنا نتحدث . . فأخذت أمتدح له أمه . . وبدا عليه الاغتباط لمديحى إياها وقال لى :

— إن مديحك لها ليس إلا ترديداً لمديحها لك . . فإنها معجبة بك أشد الإعجاب . . وكم سرنى أن تتحابا بمثل هذه السرعة .

وصمت لحظة ثم أردف بلهجة يشوبها الأسى :

— هل لك أن تعتبريها أماً لك ؟ كم وددت لو رأيت

أمك . فلا شك فى أنها إنسانة فاضلة . حدثينى عنها . . كيف كانت .

وأحسست بقلبى يدق بعنف وانتابنى شعور غريب . . وحاولت جهدى أن أتمالك وأتماسك ، واستطعت أن أجيبه فى النهاية قائلة :

ـ لقد ماتت وأنا طفلة . إنى لا أذكر عنها الشىء الكثير .

وافترقنا بعد ذلك . . وانتابنى شعور بالتخوف والقلق .

لقد كان يسهل علىّ أن أكذب عن كل الناس وأن أقول لهم إن أمى ميتة . . وأن ألقى عليهم بما أشاء من الأكاذيب . . أما عليه هو فقد كان ذلك أمراً شاقاً عسيراً ، لأنه ـ بالنسبة إلىّ ـ ليس ككل إنسان . . فلو تحققت أحلامى العذبة وأمانى الحلوة . . ولو منحنى الله ما أتوق إليه . . فارتبطت حياتى بحياته وأضحيت زوجة له لا يفارق أحدنا الآخر حتى نهاية العمر . لو تحقق أملى هذا . فلا شك فى أن الأكذوبة ستضحى أمراً خطيراً . . من الصعب الاستمرار عليها . فقد تكشفها الظروف يوماً ما . فيعرف أننى ابنة غادرة خائنة فرّت من زوجها ومن بيتها . . وأنى قد كذبت عليه وخدعته . . ماذا يكون موقفى وقتذاك ؟ أليس من الأفضل لى أن أحسم الأمر من البداية . . فإما أن أنأى بنفسى عنه . . وإما أن أكون شجاعة فأخبره بالحقيقة .

وجلست إلى ـ الحاجة ـ فى تلك الليلة . . وقد تملكتنى لوعة وأسى . . وأخذت تحسس برفق على رأسى وتحدثنى حديثاً لم أك أعى منه شيئاً . فقد كان بى شرود شديد وأخيراً سألتها فجأة :

ـ يا حاجة !

ـ نعم يا حبيبتى .

ـ هل يحق لى أن أحب ، وأن أتزوج كبقية الفتيات ؟

ونظرت إلىّ فى شىء من الدهش وهى تحاول أن تنفذ ببصرها إلى رأسى لتستطلع ما وراء قولى ثم أجابت بعد هنيهة :

ـ إذا كان شخصاً جديراً بحبك ويستحق أن يكون أهلا لك . . فلا شك فى أن لك الحق فى حبه وفى زواجه .

ـ إنه جدير بحبى وبأكثر من ذلك ، لو كنت أملك شيئاً أكثر من الحب . . وهو أهل . . لا لأن يكون زوجى ، ولكن بل ولأن يكون سيداً لى . . ولكن المسألة فىّ أنا . . هل أنا جديرة به ؟ . وهل أنا أهل لأن أكون زوجته ؟

ورفعت حاجبيها فى دهش وتساءلت :

ـ ولِمَ لا ؟

ونظرت إليها نظرة طويلة فاحصة . . وأجبتها وفى صوتى بكاء حبيس :

ـ وأمى ؟ ؟

وصدمها قولى ، وسرت فى جسدها منه رجفة ، ولكنها سألتنى فى شىء من الاستنكار :

ـ ما لأمك ؟

ـ أ أقول له عنها ؟

ـ تقولين ماذا ؟

ـ أقول الحقيقة .

ـ أية حقيقة ؟ ! لقد ماتت أمك منذ زمن طويل . . هل هناك حقيقة غير هذه ؟

واندفعت فى نوبة بكاء . وأخذ جسدى يهتز اهتزازاً عنيفاً بين ذراعيها . . وهى تربت على ظهرى وتحاول تهدئتى .

حتى هى تأبى علىّ إلا أن أستمر فى الخدعة . لقد أقنعنا أنفسنا جميعاً بأنها قد ماتت حقاً .

وأحسست بشىء من الراحة ، واستقر رأيى على ألا أصارحه بشىء .

وبعد بضعة أيام تناسيت حزنى . . وعدت أنغمر فى متعة حبه . . لا أبصر أمامى سواه . ولا أذكر غيره . وكان ذلك كفيلا بأن يمحى من حياتى كل سيئة ويبيد كل شقاء .

وعدت الأيام سريعة . . كلمع البصر . . وهكذا الأيام

دائماً . . أسرع من البرق فى السراء . وأبطأ من السلحفاة فى الضراء . . فمرت سنتان كأنهما يومان أو لحظتان . . وتخرج هو أخيراً من كليته فأضحى طبيباً . . وتقدم لخطبتى فى اليوم الذى تخرج فيه فزف إلىّ بشرى نجاحه وبشرى خطبتنا .

وأخيراً تحقق أملى فى الحياة . واضحت أحلامى حقائق ملموسة محسوسة .

فضمنى وإياه بيت واحد كأنه وكر عصفورين فى ربيع الحياة . لا ترى من حولها إلا خضرة ونضرة . . وتغريداً وترنيما .

[وجرفنى سيل السعادة . . وأبعد عنى كل ما كان يشوب حياتى من أوهام سوداء وتخيلات مزعجة . . وأبعد عنى شبح أمى وذكراها ونسيتها تماماً ، اللهم إلا فى ليال متباعدة كنت أصحو من نومى مذعورة خائفة على أثر حلم أرانى فيه قد لقيتها ومعى زوجى وأنها كانت فى حالة متهكتة متبذلة ، وأنها أقبلت علىّ تحتضننى وتنبىء زوجى بأنها أمى . . وبأن زوجى تركنى وإياها وفرّ هارباً .

ومرة أخرى أراها قد أقبلت علىّ فى دارى ، وخلفها ثلة من الفاجرات العاهرات وأنهن قد احتللن البيت وأبين أن يغادرنه .

وأنزعج عقب الحلم يوماً أو بعض يوم ثم أنساه وأنساها .

ومرت السنون بعد ذلك .. وأنا سعيدة هانئة . لاتشوب حياتى شائبة . ولا يعكر صفوها كدر . . ومات أبى فبكيته ، ولحقت به ـ الحاجة ـ بعد فترة قصيرة فحزنت عليها . . ولكن الأيام كفكفت بكائى وأضاعت حزنى . وأسدلت ستر النسيان الواحدة بعد الأخرى . فحجبتهم ضمن ما حجبت من الماضى البائد .

وفجأة . . ودون سابق إنذار رأيتها . . من ؟! أمى !! أجل أمى !

ولو أننى ياسيدى رأيت الحاجة بعثت من قبرها . . أو رأيت أبى قد سار فى الطريق ملتحفاً بأكفانه . لما أصابنى من الذعر . . ما أصابنى عندما رأيت أمى . . التى كنت أزعم للناس ولزوجى أنها قد ماتت .

ورأيتها . . أين ؟ ! فى الطريق العام الذى لا يبعد كثيراً عن دارنا . . والذى يطرقه زوجى كل يوم فى ذهابه وإيابه .

وشر من ذلك . . لقد كان بالرغم مما خط رأسها من شيب ، وما قد علا وجهها من تغضن ، هى هى . . أو على الأصح . . هى أنا . أجل ياسيدى لشد ما كان الشبه بيننا عجيباً صارخاً . . فلو أننى وضعت فى رأسى بعض الشعيرات البيضاء ورسمت فى وجهى بعض الغضون والثنيات . لما استطاع أحد أن يميز بيننا .

وهذا ياسيدى هو ما روعنى وأفزعنى . . أى إنسان يراها ولا يجزم أنها أمى ؟ اللهم إلا العمى الذين لا يبصرون . . والذين لم يكن زوجى أحدهم !

ولم أشك فى أنها كانت فى رحلة بعيدة وأنها قد عادت أخيراً . وخيل إلىّ أنها ستحاول البحث عنى !

ولست أدرى إن كانت لمحتنى أم لم تلمحنى . . ولا إذا كانت عرفتنى أم لم تعرفنى . . ولكن الذى أدريه هو أننى

انطلقت فى طريق كأننى جرذ فزع . . وأسرعت الخطى مهرولة مرتاعة كأن هناك من يطاردنى ، حتى وصلت إلى البيت لاهثة الأنفاس .

وصممت فى نفسى على أن أكون حاسمة فى أمرى وأن لا أطيل عذابى فأفضى إلى زوجى بالحقيقة . . وأقول له إن أمى لم تمت وأنها قد فرّت مع عشيقها من أبى ، وإنى قد رأيتها الليلة ، وليكن بعد ذلك ما يكون وليحدث ما يحدث .

وصادفنى زوجى على باب البيت ونظر إلىّ فى فزع وسألنى :

ـــ ما بك ؟

ـــ لا شىء . لقد أحسست فى الطريق ببعض التعب . .

لا . . لا . . إنى لا أجسر . . إن لسانى يتعثر وصوتى يحتبس . . خير لى أن أفر إلى حجرتى . . وأرقد فى فراشى . . أتزمل بأغطية ثقيلة وأدعى أننى مريضة .

ولِمَ أدعى ؟ . . ألست مريضة فعلا ؟ . . وهل هناك مرض يمكن أن يصيبنى بشر أكثر مما أنا فيه ؟

وآويت إلى الفـــراش . محطمة الأعصاب . . مجهدة مرهقة . . تصطك أسنانى كأنى عارية ليلة قر .

لا تدهش يا سيدى . . ولا تقل إن المسألة لا تستحق كل هذا الخوف . . وأن زوجى ما دام يحبنى . . وما دام لم ير

منى إلا كل حب وإخلاص. فسيغفر لى كذبى.. ولا يأخذنى بجريرة.

قد يكون ذلك صحيحاً.. ولكنى لم أكن فى حالة تسمح بالتفكير.. فقد كانت المفاجأة شديدة الوقع علىّ.. وكانت الصورة المحفورة فى ذهنى لأمى صورة شيطان أو عفريت سيدمر سعادتى ويهدم حياتى.

ومضت بضعة أيام وأنا راقدة فى فراشى.. شاردة الذهن، غاربة البال.. وعادنى طبيب فلم ير بى شيئاً سوى تعب فى الأعصاب.. وحضرت أم زوجى لتمكث فى البيت بضعة أيام.. ريثما أبل مما بى ولتعنى بزوجى وبالبيت.

ولقد حيرها أمرى.. وسألتنى فيما بينى وبينها.. هل هناك ما يضايقنى من زوجى؟ وطلبت منى أن أبوح لها بكل ما يشغل رأسى.. ولكنى لم أتكلم ولذت بالصمت.. هل أجسر على أن أقول لها ما يشغل رأسى؟

وذات يوم خرجت السيدة لتذهب إلى بيتها وجلست فى فراشى تعصف بى الأفكار.. وجلس زوجى على مقعد قريب منى.. وكنت أفزع من كل طرق على الباب ومن وقع كل قدم على الدرج. فقد كان يخيل لى أن أحلامى المفزعة ستحقق.. وأننى سأبصر أمى قادمة علىّ بين آونة وأخرى..

فيفتضح أمرى . . ويعرفون أننى ابنة فاجرة عاهرة ، وأننى
— من يدرى — ابنة حرام ؟

كيف أستطيع العيش بعد ذلك مع زوجى ؟ وكيف أقوى على الوقوف أمام أمه السيدة الطاهرة الذيل .. النقية السريرة ؟ اللهم هبنى من لدنك رحمة .

وفجأة أحسست بطرق على الباب .. فارتجفت . . ولكنها كانت أمه لا أمى . . وشعرت بشىء من الراحة .. لم تدم طويلا . . فقد أقبلت علىّ وقد بدا عليها كأنها تحمل أمراً خطيراً ، ودون أية مقدمات سألتنى فى هدوء :

— هل قابلت أمك ؟

وأترك لك ياسيدى أن تتصور وقع تلك الكلمات الثلاث فى نفسى . . لقد أحسست بالتواء فى معدتى . . وشعرت كأن هناك يداً قاسية تعتصر قلبى .

ولم أجب بشىء . فقد فقدت قدرتى على النطق وأحسست بغشاء على بصرى .

اقتربت السيدة وأخذتنى بين ذراعيها وضمتنى إلى صدرها وهمست فى أذنى :

— أيتها الحمقاء الصغيرة . . أهذا كل ما روعك ؟ . . ليتنا أنبأناك أننا نعلم بكل شىء ، ولكن الخطأ خطؤه . .

ـ وأشارت إلى ابنها ـ فلقد قلت له أن يصارحك بأنه يعلم، وبأنه يحبك بالرغم من ذلك . . ولكنه قال إنه لا يود إيلامك أو جرحك .. ولو صارحك لوفّر عليك مشقة الكتمان ولأنقذك من ذلك الجمر الذى يحرق صدرك . . وما ذنبك أنت فى جريرة أمك . . ثم إلى متى ستظلين تجزعين من أمك ؟ إنها لو كانت قاتلة لما فزعت منها مثل هذا الفزع .

ووددت لو أقول لها إنها لو قتلتنى لكان ذلك خيراً لى . . ولكن الكلام احتبس فى صدرى .

وطرق الباب مرة أخرى . ولم أفزع هذه المرة . . وبالرغم من أننى رفعت بصرى ، فوجدت الطارق هى أمى . . بدمها وبلحمها .

وأقبلت علىّ تحتضننى وقد انهمر دمعها فى بكاء صامت .

وأحسست بأننى قد غفرت لها .

ترى هل يغفر لها الله ؟

وصمتت محدثتى . . فقلت لها :

ـ إن الله غفور رحيم . .

زهور ذابلة

أهذا هو الذى ظننته عاقلا فى دنيا المجانين ؟

لشد ما أخطأت به الظن . . لقد كان مجنونا من نوع هادىء . أو مجنوناً من عشاق الزهور الذابلة . . .

obeikan.com

أقسم بأن الهوى ضرب من الجنون .. أو هو الجنون الذى يخشى الناس أن يسموه بحقيقته فيصبحوا كلهم مجانين .. فكلهم عشاق .. وعلى قدر الهوى .. « اختلف الجنون » .

قرأت ذات مرة عن أحد الفلاسفة أنه سئل عن العشق فقال : جنون إلهى لامحمود ولا مذموم . . وقال آخر : طرف من الجنون إن لم يكن عصارة السحر . . وكانت هذه هى المرة الأولى التى صادف فيها قول فيلسوف هوى فى نفسى . . أو على الأصح ، كانت هى المرة الأولى التى استطعت فيها أن أفهم قول فيلسوف . . فقد كنت لا أرى فى الفلاسفة إلا أقدر الناس على قول مالا يفهمه الناس ، ولا حاجة إليهم بفهمه . . أما هذا القول فقد كان قريباً إلى فهمى . . إذ كانت تلك هى عقيدتى . . وهذا هو مذهبى . . وكنت ـ كما قال ابن الرومى ـ لا أرى فى العاشق الهائم « إلا صحيحاً له أفعال مجنون » .

وكنت أنا نفسى مثلا لذلك الصحيح الذى له أفعال مجنون ، إذ كنت من محترفى الهوى . . إن صح أنه يمكن لإنسان أن يحترف الهوى . . فما رأيت قط وجهاً فاتناً إلا وعشقته . . وماعرضت لى عينان ساحرتان أوشفتان فاتنتان إلا وتركتانى

صريع هوى وقتيل حب . . ولم يك من شيء يطربني كالحلقة في منبع للجمال أو العدو وراء مصدر للفتنة . . ولم يك من شيء يحزنني قدر أن أبوء من تلك الحلقة بالإخفاق وأعود من ذلك العدو بخفي حنين . . وهو ما كان يحدث لي في أغلب الأحيان .

وقد يكون الطرب بالجمال شيئاً لا غبار عليه . . أما الحزن بالإخفاق عن الظفر به ، فذلك ما كنت أحس بأنه نوع من الجنون . . ولست أدري والله ماذا كنت فاعلا لو أني قد بلغت من واحدة من هاته العشرات اللاتي أعشقهن مأرباً أو نلت مراماً . . وكيف كنت أستطيع أن أوزع بينهن وقتي أو قواي . . حتى ولو كنت إبليس نفسه ؟ ولكنه خبل الهوى وجنون الغرام !

ولم يكن يعزيني في تلك الحال التي أراني عليها . . سوى يقيني أن معظم الناس يشاركونني فيه . . فما كنت أبرىء منهم أحداً مهما اختلفت طباعهم وأعمارهم . . اللهم إلا واحداً كنت أراه بين الناس نسيج وحده .

كان صاحبي هذا شديد رجاحة العقل ، كثير الهدوء والاتزان . . حتى لقد توهمت به — قبل أن أعرفه بتمام معرفته — جمود حس وخمود عاطفة من فرط ما كان يبدو لي

من رزانته وهدوئه . . ولكن لم تكد تزداد بيننا أواصر المعرفة وتربطنا روابط الصداقة . . حتى بدأت أتبين فى نفسه رقة وجمالا ، وبدأت أكتشف فيه روحاً شاعرية حساسة . . ورأيتنى أتذوق منه الكثير من جمال الأدب والشعر . . وتبينت فيه ميلا إلى الفنون على اختلاف أنواع ذلك . . ومع كل هذا كنت أجد عنده ميلا عن النساء وعداً فيهن . . فما رأيتهن يحركن فيه ساكنة راكدة ، أو يثرن به جامدة باردة . . وما كان ذلك الوجه الذى يجعلنى أحملق فيه ثم أتابعه بنظراتى حتى تكاد عيناى تفارقان محجريهما عدواً وراءه . . ما كان ذلك الوجه ليثيره أكثر مما يثيره مقعد فى حجرة أو سيارة فى طريق .

وهكذا اعتقدت أخيراً أننى عثرت على عاقل فى دنيا المجانين . . حتى كنت أجلس وصاحبى ذات ليلة فى شرفة داره ، وكانت تهب علينا نسمات خفيفة كأنها زفرات هادئة من قلب ليلة من ليالى الصيف . . وساد صمت عميق شرد فيه كل منا بذهنه مع أوهامه وأحلامه . . حتى رأيتنى أقطع حبل الصمت وأسأله مداعباً :

— فيم التفكير والتأمل وأنت لست من العشاق ولا من أشباههم ؟

ـ أو قد حرم التفكير إلا على العشاق ؟ !

ـ لم يحرم ، ولكنهم هم أحق الناس به . فهم يستعينون بحلاوة الأوهام على مرارة الحقائق . . وهم ينالون من متعة الأحلام ماحرموه من لذة الواقع .

وضحك صاحبي ضحكة لم أميز مداها من الضحك ، فقد لمحت بها مرارة وسمعته يقول بين المزاح والجد :

ـ إذاً فاعتبرني من العشاق .

فأجبته بضحكة ماجنة . . ولكنه عاد فأردف فى صوت ملؤه الحزن :

ـ على الأقل من عشاق الزهور الذابلة .

ودهشت له . . فقد مست منى لهجته الحزينة موضعاً حساساً . . وانتظرت أن يطلعنى على خبيئة نفسه . . ولكنه لم ينبس ببنت شفة . . بل غادر الشرفة فى صمت واختفى داخل الحجرة ثم عاد بعد لحظات ومعه كيس جلدى صغير مما يضع فيه المرء نقوده وأوراقه . . ثم جلس بجوارى . . ورأيته يفتح الكيس ثم يخرج من جانب منه زهرة ذابلة أمسكها بحرص بين أصابعه خشية أن تتفرط أوراقها الجافة الباهتة ، ونظر إليها بلهفة وحنين ثم أعادها إلى مكانها بعناية ورفق ومد أصبعه إلى الجانب الآخر من الكيس وأخذ يعبث

فيه هنيهة .. واستطعت أن أميز ذلك الشيء الذى يعبث به .. فإذا هو مسحوق أوراق لزهرة أخرى أشد من هذه ذبولا وأقدم عهداً ، فقد طال بها الزمن فى الكيس فحولتها الأيام رماداً كأديم الأرض .

وزاد دهشى من صاحبى ، واشتدت بى اللهفة إلى أن أعرف سر حرصه على تلك الزهور الذابلة البائدة .. ولم يطل انتظارى فقد تكلم أخيراً .. تكلم وكأنه يحدث نفسه .. أو كأنى غير كائن .. فهو يستعيد لنفسه ذكرى قد تكون بها مرارة وقد تكون بها حلاوة .. لكن الذى لاشك فيه هو أن فيها عزاء وفيها سلوة .

قال صاحبى :

ـــ عرفت الحب مذ عرفت الحياة .. فقد كان أول ماوعيته فى هذه الدنيا هو أنى أحببت .. فما خلت لحظة من لحظات حياتى منذ طفولتى من معشوقة أهيم بها عشقاً .. وما زلت أذكر كيف كنت أقذف « غطيان القلل » من (المَنْور) وأنا فى السادسة من عمرى .. لا لشيء إلا نزولى لإحضارها من لدن الجيران الذين يقطنون فى الطبقة السفلى فأستطيع بذلك أن أسترق من ابنتهم الجميلة بضع نظرات أو بضع كلمات .. إذ كنت شديد الولع بها .. حتى أنى كثيراً

obeikandl.com

ما كنت أتخيل نفسى مكان البطل « دان » وأتخيلها مكان الحسناء « دوراء » اللذين كنت أتابع مغامرتهما فى (مجلة الأولاد) فأرانى وقد حملتها فى طائرة إلى جزيرة نائية بعيدة عن أعين الرقباء .

ورحل الجيران ورحلت معهم فتاتى المحبوبة . . فسرعان ما احتلت غيرها مكانها . . وهكذا ظلت تتتابع علىّ الحبيبة تلو الحبيبة . . فما خلا قلبى من واحدة قط .

وكان حبى فى الحب نوعاً عجيباً .. إذ كنت شديد الانطواء على نفسى . . كثير الخجل والحياء . . فكنت أكتفى بالحب السلبى . . أو بالحب من جانب واحد . . فما من واحدة من هؤلاء العشرات اللاتى ولهت بهن حباً قد بادلتنى الحب . . أو حتى أدركت أننى أحبها . . فقد كنت أخلو إلى نفسى فأدبر الخطط للقـــاء ، وأحضر ما سوف أردده لها من الأحاديث ، وأتوهم ماسوف تقوله لى وما سوف أقوله رداً على قولها . . وهكذا حتى أحكم فى رأسى كل تفاصيل اللقاء .

ولكننى لا أكاد أبصرها حتى أحس بالدم يتصاعد إلى وجهى . . وبأنفاسى تتلاحق وقلبى يدق دقاً عنيفاً حتى كأننى أعدو فى سباق ، وأحس بالارتباك قد شملنى من أخمص قدمى إلى قمة رأسى . . وأحس كأننى لست أنا أو كأننى أسير

بلا قدمين أو بلا رأس . . ولا أكاد أقترب منها حتى أكون قد وصلت إلى أقصى درجات الارتباك . . وإذا بكل ما كان فى رأسى قد تطاير وتلاشى . . وإذا بى لا أفكر فى شىء سوى الفرار . . وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت إن كل أدوار العشق التى مرت بى كانت من هذا القبيل . . لا تغيير ولا تبديل . . حتى ألِفت ذلك الحب الذى لا يشعر به غيرى .

ومرت الأيام ، وشارفت الثامنة عشرة ، وأنا غريق فى هوى نفسى . . وذات ليلة خلوت إلى نفسى أستذكر . . فأخذ بصرى ضوءاً فى النافذة المقابلة . . وإذا بى أرى فتاة قد جلست تعمل بابرتين من إبر « التريكو » وقد سبحت ببصرها من النافذة .

وأدركت أن البيت المجاور قد سكن . . وأطربنى أن تكون الفتاة جارة لنا . . وقلت لنفسى — كما تعودت أن أقول دائماً — إن هذه هى حبيبة العمر . . ولا بد أن أكون معها جريئاً . . لأفوز منها بحب أو بصداقة . . وأن أقلع عن ذلك الخجل والانطواء .

وبدأت الهجوم . . ولم يكن لدىّ من أسلحة الغزل . . سوى الحملقة . . وظللت أحملق فى الفتاة مايقرب من نصف ساعة . . وهى لا تكاد تشعر بوجودى . . وهنا بدأت أعمال

الجرأة ـ أو على الأقل ما ظننته كذلك ـ فصرخت بالخادمة أن تحضر لى كوباً من الماء.. حتى ألفت نظر صاحبتنا.. ومع ذلك لم يحرك صياحى ساكناً .. فقمت إلى النافذة

وأغلقتها بشدة ثم فتحتها ثانية .. محدثاً بذلك ضجة توقظ أهل الكهف .. وهنا فقط أحست بوجودى .. ورفعت إلىّ بصرها بدهش كما لو كانت تنظر إلى مخبول .. ثم قامت إلى وساد الغرفة ظلام وسكون .

وندمت على ما فعلت .. فقد كان من الخير أن ألزم

السكون فأمتع منها ولو بالنظر إليها . . وأخيراً ذهبت إلى فراشى . . وأنا أضع الخطط فى رأسى كما تعودت أن أفعل .

وتعوّدت بعد ذلك أن أراها فى مكانها كل ليلة . . وأحسست أنها تنساب إلى نفسى انسياب الجدول . . فقد سحرنى هدوء وجهها ورقته ، وفتنتنى تلك السكينة والبراءة التى تعلو ملامحها . . ورأيتها قد أحست بوجودى . . وأنها لم تعد تغضبها نظراتى .. بل خيل إلىّ أن هناك نوعاً من الود قد نشأ بيننا من طول النظرات .

ولم أكن أشك وقتذاك فى أنها تكبرنى بما يقرب من السبع سنوات فقد كانت تبلغ الخامسة والعشرين .. ولم أكن أشك فى أنى لن آخذ منها أكثر من سابقاتها . . فأغلب ظنى أنها لا تنظر إلىّ أكثر من نظرتها إلى تلميذ عابث خير له أن يشغل نفسه بالدروس أو بلعب الكرة .

ولكنى — بالرغم من ذلك اليأس — وجدتنى أندفع فى حبها . . ووجدتها — وقد سبب لى هذا أرق ليلة كاملة من فرط الفرح — تبتسم لى ذات مرة وتشير برأسها تحيية .

ولا أظن امرءاً يستطيع أن يدرك مبلغ سعادتى بتلك البسمة . . أنا الذى أحببت مئات المرات دون أن تعرف واحدة ممن أحببتهن أنى أحبها .

ولا أدرى بعد ذلك كيف بدأ بيننا التقارب . . ولكننى أذكر أنه حدث دون سابق تحضير أو ترتيب ، ودون أية خطة موضوعة كتلك الخطط التى كنت أضعها للتقرب إلى من أحببت ، وكانت تنتهى دائماً بفرارى من الميدان .

لقد كانت رقيقة لطيفة . . فأطارت من نفسى ما بها من خجل وارتباك . . ورأيتنى أفيض بالحديث معها . . حتى لكأن اللقاء لم يكن لأول مرة ، بل لكأنها توأم نفسى وصنو روحى .

وقضيت بعد ذلك فترة من العمر ، تغمرنى بحنانها الفياض وحبها الطاهر الذى لا تشوبه شائبة . . وما زلت أذكر تلك الليالى التى كنت أتسلل فيها إلى حديقة دارها . . والكون قد شمله سكون عجيب . . فأجدها فى انتظارى فى خميلة بركن من الحديقة ، حيث نجلس متلاصقين ، ويمر بنا الوقت سراعاً وقد اتكأت برأسى على صدرها ، وأحسست بيديها تعبثان بشعرى ، وأخذنا نتهامس فى صوت خفيض .

وذات يوم وأنا عائد من المدرسة لمحت على باب دارها بعض الأعلام الخضر . . فأحسست بانقباض فى نفسى . . وعندما لقيتها فى تلك الليلة أخبرتنى بأنها ستزف بعد بضعة أيام . . وكانت تبدو على وجهها لمحة من يأس . . وكان فى صوتها صدى لبكاء .

وتواقفنا للوداع فرأيتها تمد يدها لتقطف إحدى الزهور التى شملها الظلام وتدفع بها إلىّ هامسة :

ـ أذكرنى بهذه الزهرة .

وصمت صاحبى ومدّ أصابعه فى الكيس يعبث بمسحوق الزهرة البائدة ثم قال :

ـ هذه هى الزهرة الأولى . . أما الزهرة الثانية . .

ورأيته يخرج الزهرة الجافة برفق ثم يتأملها هنيهة . . ويقول :

ـ أما الزهرة الثانية . . فهى فتاة لقيتها فى الصيف الماضى على شاطىء البحر . . بعد خمسة عشر عاماً من فراق الزهرة الأولى . . خمسة عشر عاماً . . لا أدعى أنى قضيتها فى زهد تام عن النساء وفى منأى عن الهوى والعشق . . ولكنى

مع ذلك أستطيع أن أؤكد أن ذكرى صاحبتى لم تفارق رأسى لحظة واحدة . . وأننى عدت إلى سابق عهدى من الانطواء على نفسى . . ومن الحياء والخجل . . فما استطاعت واحدة أن تحتل من نفسى مكانتها . . حتى لقيت فتاة الشاطىء — أو على الأصح صبية الشاطىء — ببراءتها وسذاجتها . . كأنها دمية جميلة فرأيتنى أندفع فى حبها . . ورأيتها تندفع فى حبى ، دون تفكير منا ولا روية ، وأخذنا نلتقى على الشاطىء فى الصباح المبكر والبحر قد خلا إلا منى ومنها . . وكنت أدهش لذلك الحنين الذى أحس به نحوها . . وكنت أراها أشبه بقطة صغيرة . . عندما أمسك بوجهها الصغير بين كفى وألحظ فى عينيها بريق سرور وهناءة .

واستطاعت الفتاة الحلوة الصغيرة أن تعيد إلى نفسى تلك السعادة التى افتقدتها فى تلك الأعوام الطويلة . . منذ أن فارقت صاحبتى الأولى .

وذات صباح افتقدت الفتاة فلم أجدها . . وطالت غيبتها عنى بعد ذلك ، فانتابنى هم وأصابنى جزع وقلق .

وكانت النهاية فى هذه المرة أسرع وأقسى مما يتصور عقل . . فقد علمت أخيراً أن الفتاة الحبيبة قد أصابتها حمى أودت بها ولم تمهلها كثيراً ولا قليلا .

وحملتنى قدماى بين سكون المقابر ووحشتها حتى استقر بى المقام أمام قبرها فرأيت امرأة قد عصف بها الحزن فطفقت تنشج فى لوعة وأسى، فأدركت أنها لا بد وأن تكون أمها الثكلى.

ورفعت إلىّ المرأة وجهها!.

وصمت صاحبي هنيهة.. ثم سألنى هامساً:

ــ ترى من تظن الأم الحزينة؟.

وهززت رأسى فى تساؤل.. إذ لم أستطع أن أدرى مايعنى.. وأردف هو فى صوت ملىء بالمرارة:

ــ لقد كانت صاحبتى الأولى.. لقد رفعت إلىّ بصرها ولم يبد عليها دهش لمرآى.. فقد عرفت من فتاتها من أكون. ولقد أسعدها أن يربط بينى وبين ابنتها ذلك الرباط الذى لم يستطع أن ينتظمنا من زمن خلا.. ولكن القدر سخر منا مرة أخرى.

ورأيتها تمد يدها إلىّ بشىء قالت إن ابنتها طلبت منها أن تعطينى إياه لأذكرها به.. ونظرت إلى ما أعطتنى فإذا به زهرة ثانية.

وأمسك صاحبي بالزهرة بين أصابعه.. ورأيت فى عينيه سحابة دمع تهم بأن تهطل على خديه.

أهذا هو الذى ظننته عاقلا فى دنيا المجانين ؟ .

لشد ما أخطأت به الظن . . لقد كان مجنوناً من نوع هادىء . . أو مجنوناً من عشاق الزهور الذابلة ؟ ؟ .

obeikandl.com

عبقرى يعبث

هذه الوريقات التى رأيتنى أنكب على نسخها
من جديد ستكون حدثاً فى عالم القصة والأدب . .
إن صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض .. ولقد
أقسمت بأن أفنى نفسى لأخلده . .

obeikandl.com

كنت أقف أمام الواجهة الزجاجية لإحدى المكاتب الشهيرة ، فأخذت أفحص ما صف فيها من كتب لعلّي أجد بها جديداً يستحق الشراء . . وأخذت أنقل بصرى من كتاب إلى آخر دون أن أجد هنالك ما يسترعى الانتباه . فكل ما فى الواجهة لم يكن ليزيد على كتب قد ابتعتها من قبل . . أو على كتب لم أبتعها لتفاهة فى الموضوع أو لغلاء فى الثمن .

وهممت بالمسير . . ولكنى وجدت الواجهة الزجاجية تفتح من الداخل . . وأبصرت يداً تمد فتضع كتابا جديداً فى نهاية الصفوف . . فتمهلت قليلا لأقرأ عنوان الكتاب واسم مؤلفه .

ووقفت هنيهة . . وقد علق بصرى بالكتاب . . فقد كان كلا الاسمين ـ اسم الكتاب والمؤلف ـ معروفاً لدى . . وخيل إلىّ أنى قد سمعت بهما قبل الآن ، وإن كنت لا أذكر أنى رأيت الكتاب من قبل . . ولم يطل بى التفكير . . حتى بدرت منى صيحة دهش لم أستطع كتمها . . واندفعت داخل المكتبة كأن بى مساً من جنون . . وبعد لحظات كنت أنطلق إلى الدار والكتاب بيدى وقد شرد ذهنى فى حشد من

ذكريات غابرة . . كان الزمن قد جعل منها رفاتاً بائداً بالياً ، فإذا الكتاب يبعث فيها الحياة كأنها ما انطوت فى بطن الزمن وما ثوت .

وخلوت إلى نفسى أتصفح الكتاب . فقد كان بى لهفة إليه . . إذ لم أكن أتصور قط أنه سيخرج إلى الحياة . . وما ظننت أن تلك الوريقات الممزقة البالية قد قدر لها أن تبعث من مرقدها بعد طول خمود وركود .

وحاولت أن أقرأ . . ولكن ذهنى كان فى غيبة بعيدة . . وكنت أبصر الحروف أمامى أشباحاً متصلة متشابكة تتراقص أمام عينى فلا أستطيع أن أفهم لها معنى . . فطويت الكتاب وأحنيت رأسى إلى الوراء . . ثم أطلقت لذهنى العنان ورحت فى شبه غيبوبة .

يا للفتاة العجيبة ! . إنى لأذكرها جيداً على الرغم من تلك السنين التى فرّقت بينى وبينها . . وكأنى بها جالسة أمامى وقد تقوس ظهرها وانكبت برأسها على الوريقات المطموسة الباهتة تعيد كتابتها .

كان ذلك فى « حى المنيرة » . . وكانت أول مرة أبصر فيها أحداً من جيراننا الجدد الذين سكنوا منذ يومين الشقة المقابلة . . عندما عدت إلى الدار ذات مساء فلمحت من خلال

الباب شبحها وقد انحنت على المنضدة وبدا عليها الانهماك فى الكتابة حتى لكأنها تلميذ يسكب على أوراق الامتحان عصارة ذهنه .. أو عاشق يريق فى رسالة غرام ماء قلبه .

ورأيتها بعد ذلك بضع مرات .. وعلمت أنها طالبة فى كلية الآداب .. ولم تكن مفرطة فى الجمال .. ولكنها كانت مقبولة الشكل .. وكان بوجهها ميل إلى الصفرة وبجسدها ميل إلى النحول .. يبدو عليها حدة الذهن وشدة الذكاء .. ولم تكن الفتاة لتثير فى نفسى الاهتمام .. لولا ذلك الانهماك العجيب فى الكتابة والنسخ .. فما رأيتها تفعل شيئاً سوى

الكتابة . . حتى بت أتحرق شوقاً لأرى فيم تكتب وماذا تنسخ . . وسنحت الفرصة أخيراً وبدأت أواصر الصداقة تربطنا بجيراننا الجدد .

وبدا لى من نفس الفتاة ما هو خير ما بدا من وجهها وجسدها . . وبدأت تنال منى الكثير من الإعجاب . . وأقبلت عليها ذات مرة وهى منهمكة فى الكتابة وجلست على مقعد بجوارها . . فرأيت أمامها كومة من أوراق رثة باهتة من مختلف الأنواع والأحجام وقد اندس بينها بضع من علب السجائر قد كتب على ظهرها ، وبعض من ورق الجرائد قد كتب على هوامشه . . ورأيتها أخذت تنسخ من هذا ومن ذاك . . كأنما تحاول أن تجمع منها موضوعاً معيناً .

وسألتها عما تكتب . . وطلبت إليها أن تكف عن الكتابة لتريح نفسها بالحديث إلىّ بعض الوقت . . ولا بد أن يكون التعب قد أخذ منها كل مأخذ . . إذ ما كادت تسمع قولى حتى ألقت بالقلم جانباً واستقام ظهرها بعد طول انحناء ، ثم نظرت إلىّ هنيهة وأجابت :

ـ أتريد حقاً أن تسمع ؟ . . لقد أجهدتنى الكتابة وأحس برغبة فى الراحة والحديث .

وتأبطت يدها أميل بها إلى الشرفة وجلسنا هنيهة فى صمت

ما لبثت أن قطعته وقد استجمعت شوارد أفكارها . . ثم بدأت تتحدث :

ـــ هذه الوريقات التى رأيتنى أنكب على نسخها من جديد ، ستكون حدثاً فى عالم القصة والأدب . . إن صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض قبل أن يتمكن من إخراجها إلى النور . . وكم أود أن يهبنى الله قوة من لدنه حتى أبعثها إلى الحياة . . وكم تتملكنى اللوعة والأسى . عندما أتصور أنه سيفنى وتفنى ذكراه . . دون أن يحس به أحد . . إنى أريد أن أنصفه فى مماته . . مادام هو لم ينصف نفسه فى حياته . . إنه شخص يستحق الخلود . . ولقد أقسمت بأن أفنى نفسى لأخلده .

دعنى أعود بك إلى الوراء قليلا ، فأخبرك كيف رأيته ، وكيف عرفته ، لقد جمعتنى وإياه زمالتنا فى كلية الآداب . . ولفت نظرى بكبير هدوئه وميله إلى الوحدة . . فما رأيته قط يخاطب أحداً أو يسير مع أحد . . وأحسست فى نفسى بميل إليه . . وقد يكون ذلك لتشابه بين نفسينا وتشابه فى طباعنا . . فقد كنت أنا الأخرى شديدة الصمت والنفور من الناس . . وتعارفنا ذات يوم ، وسرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة .

وأدهشنى الفتى . . فما أذكر أنى لقيت فى حياتى امرءاً غيره يجمع فى نفسه ذلك القدر من الشعور الفياض

والإحساس المرهف .. كان فناناً فى كل شىء ، ولوعاً بكل نواحى الفن من رسم وموسيقى وأدب وشعر . وكان كريم النفس جميل الخلق . . فما رأيته يكره أحداً أو يذم أحداً ، بل كان يحب كل الناس . . حتى ليخيل لى أنه لو وزع ما فى قلبه الجميل من حب وعطف على الناس أجمعين . . لما بقيت فى هذه الدنيا عداوة أو خصام .

وكم كان يحلو لى أن أجلس بجواره فى حدائق الأورمان عقيب انتهاء الدراسة .. فأستمع إليه يترنم ببعض من أبيات الشعر قديمه وحديثه . . أو يقص علىّ قصة قرأها فأعجبته ! . . أو ينشد لى بعضاً من الأغانى التى تستهوى نفسه . . وكان شديد الولع بشوقى وبعبد الوهاب عندما يلتقيان فى أغنية . . وأنى لأكاد أسمع صوته العذب وهو يترنم بقصيدة « ردت الروح » . . وكانت أحب الأغنيات إلى نفسه . . وأكاد أبصر وجهه الرقيق وهو ينشد فى ابتسامة حلوة هادئة :

موقعى عندك لا أعلمه آه لو تعلم عندى موقعك

فتتملكنى اللوعة ويحتوينى الشجن . . وأتمنى لو يسمعنى الآن كما أسمعه ، وأن يصل صوتى إلى مضجعه .. فأهتف به كما هتف بى من قبل :

نامت الأعين إلا مقـــلة
تكسب الدمع وترعى مضجعك

ولكن أين صوتي من مسمعه؟ . وأين عيني من مضجعه؟ لقد أضحى الآن عظاماً نخرة يحتويها قبر بأرض قفرة .

كان كثيراً ما يحدثني عن أبيه . . فقد كان شديد الإعجاب به . . وكان يتحدث عنه كما يتحدث عن صديق حميم . . وكان يحلو له دائماً أن يقرأ لي الكثير من مؤلفاته وقصصه وأشعاره . . وكان يخبرني أنه ما عشق كتابة عشقه كتابة أبيه . . وما استطاع أديب أو كاتب أن يمس من نفسه موضعاً حساساً كما استطاع أبوه . . ولم يكن يدري أعند الناس كان كذلك ؟ . أم كان ذلك الإعجاب منه لتشابه بين نفسيهما لأنه أبوه ولأنه كان يحس عندما يقرأ له بأنه يقرأ هو لنفسه ؟

وذات يوم أقبل عليّ وبوجهه بشاشة وحبور ، وانتحى بي ناحية هادئة ، ثم أخرج بضع ورقات من حقيبته وخاطبني قائلا :

— أريد أن أسمع رأيك فيما سأقرأه عليك . . فإياك والمجاملة . .

وعندما انتهى من القراءة لم يسعني إلا أن أهتف صائحة :

— رائع ! . . مدهش ! . . أين البقية ؟

— لم أكتبها بعد . .

ـ أقسم لك بأنها ستحدث ضجة فى عالم الأدب إذا أتممتها على هذا المنوال . . إن قدرتك على الوصف والتصوير لقدرة عجيبة . . وإن خيالك لآية فى الروعة .

ولم أكن فى قولى هذا مبالغة أو مجاملة . . بل كنت أتكلم عن عقيدة راسخة لأنى كنت ألمس فيه عبقرية كامنة . . عبقرية خلقها الله معه .

وفى اليوم التالى . . افتقدته فلم أجده . . ومضت بضعة أيام وهو فى غيبته حتى أبصرته أخيراً فى صبيحة يوم وهو يسير فى فناء الكلية متجهاً نحو الباب ، فأسرعت الخطى إليه وناديته ، فتوقف ، ثم أدار إلىّ وجهه . . فراعنى ذلك الهزال الذى بدا عليه . . والحزن الذى كسا وجهه . . وتلك الملابس السوداء التى احتوت جسده .

ومد يده إلىّ فى صمت . . ولم أجد فى نفسى الجرأة على سؤاله . . فقد خشيت إن أنا تكلمت أن أنفجر باكية . . فقد كان مرآه الحزين يوجع نفسى ، وما تعودت أن أراه حزيناً . . واكتفيت بأن أهز رأسى متسائلة . . وأجاب :

ـ إنه أبى !

وعرته هزة سرت فى أطرافه كمن يغالب البكاء ، ثم أرخى يده فشد على يدى بسرعة وغادرنى دون أن ينطق بكلمة .

وكانت آخر مرة أبصرته فى الكلية فقد انقطع عن الدراسة بعد ذلك والتحق بإحدى الوظائف الكتابية ، إذ كان عليه أن يحصل على المال لأن أباه لم يترك لأسرته شيئاً .

ولقيته بعد ذلك . . أو على الأصح تعمدت لقاءه . . فقد كان بى شوق إلى أن أبصر وجهه وأسمع حديثه . . فرأيته مفرط الصمت ، كثير الاطراق والوجوم . . فسألته عما تم فى قصته . . فأجاب فى اقتضاب :

ـ لقد تركت الكتابة . .

ـ لا تكن مجنوناً ! !

ـ إن أخوتى فى حاجة إلى نقود ورعاية . . إنى أعمل صبحاً وبعد الظهر . . وليس لدىّ ثانية أقضيها فى الكتابة .

وخيل إلىّ كأن فى صدره طائراً حبيساً يحاول الانطلاق ولكنه كان يضيق عليه الخناق .

وحاولت عبثاً أن أعيد إلى نفسه الأمل . . ولكنه هز رأسه فى صمت وأجاب كمن يحدث نفسه :

ـ لا فائدة . هذه الحياة لابد أن يضحى فيها البعض ، كى يسعد البعض الآخر . . وإلا أصابهم الشقاء أجمعين ، ولقد قدر لى أن أكون من النوع الأول .

وافترقنا وبنفسى غصة ولوعة . . لقد وددت لو استطعت أن أحتويه بين ذراعى وأخفى رأسه فى صدرى لأدفع عنه أحزانه وأشجانه . . ولكن الحياء كان يمنعنى .

ولم يقعدنى اليأس من أن أدفعه إلى الكتابة ، فحاولت أن أعيد الكرة . . ولكن من طريق آخر . لقد كنت أعلم أنه لا يعصى لأمه أمراً ولا يرد لها طلبا ، فذهبت ذات صباح إلى داره وهو غائب فى عمله ، وطرقت الباب فلقيتنى سيدة سمحة الوجه قد اتشحت بالسواد . . وأدخلتنى فى غرفة الاستقبال وجلست السيدة أمامى مطرقة تنتظر أن أبدأ بالحديث ، وأنبأتها فى اقتضاب بما أتيت من أجله ورجوتها أن تعاوننى فى حمله على أن يستمر فى الكتابة ، فحرام أن تقتل هذه العبقرية فى مهدها . وصمتت السيدة هنيهة ثم اقتربت منى ، وقالت :

— يابنية ، إنى أشكر لك هـذا الشعور نحوه وهذا الاهتمام به ، ولكنك ما زلت صغيرة بعد . . وإننى أكثر منك تجربة فى الحياة ، وإننى لا أتمنى له شيئاً إلا أن يبتعد بنفسه عن الكتابة والأدب . . ماذا تظنينه ليصبح مهما بلغ من النبوغ . . أيصبح كأبيه ؟ . . لقد عاش عمره فقيراً ومات دون أن يترك لنا ما نستطيع العيش به . . ولا أعلم ماذا كان مصيرنا لولا ذلك المعاش الذى خلفه لنا من وظيفته الحكومية

التى كان يزدريها ويحتقرها . . ماذا أفاد من الأدب والكتابة . . حتى الذكرى قد بخلوا بها عليه .

وصدمنى حديث السيدة ، فلم أكن أتوقع منها مثل ذلك الرد . . وحاولت أن أزيل من نفسها ذلك التشاؤم والتحامل ولكنى كنت كالنافخة فى رماد .

ومضت مدة بعد ذلك . . ولقيت الفتى مرة أخرى . . وكان مرّ الأيام قد خفف قليلا من حزنه ولوعته ، فوجدته أكثر بشاشة واستطعت أن أقنعه بأن يحاول الكتابة فى لحظات فراغه .

وحلت عطلة الصيف وسافرت إلى بلدتنا بعد أن أقسم لى بأننى لن أعود إلا وأجده قد أتم القصة . . وفعلا . . صدق الفتى وعده . . فلم تكد العطلة تنتهى وأعود إلى القاهرة . . حتى وجدت القصة قد انتهت .

وصمتت الفتاة هنيهة . . ولمحت فى عينيها دمعة تترقرق ثم استأنفت :

— لقد وجدت القصة قد انتهت . . ولكنه هو أيضاً كان قد انتهى . . لقد أفرط الفتى فى إجهاد نفسه . . حتى أصيب بالتهاب فى الرئة . . وكان السهر قد أنهكه وأضعف

من مقاومته للداء.. ولم يحاول هو كذلك أن يستريح ولم يرحم نفسه، فلم يرحمه الداء.

ولا أظن هناك من الألفاظ ما أستطيع أن أعبر به عما أصبت بفقده.. لقد أحسست بيأس من الحياة.. وذكرت قوله: «إن هذه الحياة لا بد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الآخر». ولكنى أيقنت الآن أن الحياة كلها أحقر من أن يكون فيها مايستحق التضحية.

ولم أستطع فى مبدإ الأمر أن أذهب لتعزية أمه.. ولكنى تمالكت نفسى أخيراً وذهبت للقائها.

سبحانك اللهم.. تلهم الصبر عبادك المؤمنين.. لقد قابلتنى السيدة فى صمت، وحاولت أن أعزيها ببضع كلمات، فقالت بصوت يملؤه الإيمان: الحمد لله!

ثم اختفت هنيهة وعادت تحمل إلىّ حقيبة الفتى ودفعتها إلى وهى تهمس:

— لقد قال لى إنه أتم القصة.. خذيها يابنيتى فأنت أولى بها.

وصمتت الفتاة، فمددت يدى وشددت على يدها ونظرت إلى هذه الكومة من الورق البالى وحملقت فى شك:

— أتظنين أنك ستستطيعين بعثها إلى الحياة؟

ـ أدعو الله أن يعينني على ذلك .

ومرّ الزمن وأنا أبصر الفتاة تكتب وتكتب . . حتى خيل إليّ أنها ستفنى عمرها فى الكتابة . . ثم فرقتنا الأيام حتى أبصرت الكتاب فى ذلك المساء ، فأعاد إلى رأسى قصتها.

وأمسكت بالكتاب الأنيق أقلبه بين يدى . . وأقبلت على قراءته بلهفة وشوق . . فلم أتركه إلا وقد أتيت على آخره . فإذا به أبدع ما قرأت . . وأحسست بنشوة تملكتنى بعد قراءته . . وشعرت بأن فيه نوعاً من السحر ، الله أعلم بمبعثه . . أهو الفتى العبقرى ؟ أم الفتاة التى بعثته إلى الحياة ؟

obeikandl.com

شاة وقصاب

الشاة لا تتوقع من القصاب ذبحاً ولا غدراً ..

والقصاب لا يرى نفعه إلا فى الذبح والغدر . .

وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة .

ويبقى القصاب يفتك بغيرها من الشياه . .

النقيات القلوب ، الطاهرات النفوس .

obeikandl.com

القصة مهداة إلى الأستاذ « ميخائيل نعيمه » . .

هذه على غير معرفة بيننا ولاسابق لقاء . . وإن كنت من جانبي قد لقيته أجمل لقاء على صفحات كتابه « كرم على درب » . . وصافحته بخاطرى بين سطوره وكلماته . . أو . . بين عناقيده وحباته .

إليه أهدى هذه القصة . . فقد أوحى إلىّ بها قول له : « رأت الشاة قصابها يشحذ سكينه فقالت له : احترس ياسيدى من أن تجرح أصبعك » . . فقد مس منى ذلك القول موضعاً حساساً . . وأثار فى قلبي شعوراً بالحزن والشجن . . وقلت لنفسى كم بيننا فى الحياة من شاة وقصاب . . خلا قلبه من كل عطف وبر . . الشاة لاتتوقع من القصاب ذبحاً ولا غدراً . . والقصاب لايرى نفعه إلا فى الذبح والغدر، وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة . . ويبقى القصاب يفتك بغيرها من الشياه . . النقيات القلوب ، الطاهرات النفوس .

ووجدتنى أتريث أمام ذلك القول .. وأمعن فيه الفكر .. ثم أقول لنفسى .. أكتب ! من يدرى ؟ فقد يكون فى قصتك عزاء لكل شاة . . وعظة لكل قصاب !

أنا فى بيت « الشاة » . . بيت قديم فى « حى الحلمية » . .

لا يفصله عن البيت الذى أقطنه سوى حارة ضيقة . . ولم يك قد خطر ببالى أن أزور البيت من قبل . . بل وما فكرت قط طوال تلك المدة أن أسأل عمن يقطنه . . لأنى شخص سلبه الله خاصية حب الاستطلاع . . حتى كان ذات يوم فطرق بابى طارق . . وإذا هو خادم عجوز تطلب إلىّ فى استحياء أن أقرضها بعض النقود لتبتاع به دواء لسيدتها المريضة طريحة الفراش . . التى تقطن البيت المجاور .

ولم أملك ، فأسرعت بإعطائها ماطلبت . . فقد كانت الطريقة التى طلبت بها النقود تجعل أى امرىء — مهما بلغ به البخل — لا يكتفى بأن يجيبها إلى ماطلبت . . بل يأسف لأن الله لم يلهمه أن يعطيها النقود قبل أن تطلبها . . فيوفر عليها مشقة الطلب وعناء الاستجداء .

ولم يكن بذبعد ذلك من أن أقوم بزيارة للجارة المريضة ، فقد دفعنى عامل المروءة ألا أنتظر حتى يطلبوا منى المساعدة مرة أخرى . . بل أذهب أنا لأعرضها ، ولأقوم بواجب الجيرة .

ودخلت البيت . . فوجدته موحش المظهر بالى الأثاث . . ولقيتنى العجوز مرحبة وأجلستنى فى حجرة يقولون إنها للاستقبال . . وسألتها عن حال سيدتها فأنبأتنى بأنها مازالت

مريضة .. ولم أمكث سوى بضع لحظات ، ثم نهضت للانصراف .. وسألتها فى صوت خافت خجل إن كانت فى حاجة إلى شىء من النقود .. ، فأبت إباء يشوبه الحياء والحيرة ، فلم أجد خيراً من أن أدس فى يدها قبضة من النقود .. وتركتها وانصرفت .

وتكررت زيارتى دون أن أرى المريضة نفسها .. وأنست إلىّ العجوز واطمأنت .. وبدأت تفضفض بالحديث وكأنما وجدت فى الحديث متنفساً لها فأنبأتنى فيما قالت ذات مرة .. وقد بدا عليها كثير من الأسف الممزوج بالدهش :

ـــ أكثر ما يؤلمنى ياسيدى أن لديها من النقود ما يكفينا مذلة الاقتراض ، ولكنها ترفض أن تعطينى شيئاً لأبتاع لها الدواء ، فاضطررت أن ألجأ إليك وأدعى أمامها أن الصيدلى قد قبل أن يعطينا الدواء .. على أن نسدد ثمنه فيما بعد .. ولولا ذلك لما قبلت تناوله .

وأصابنى دهش شديد .. ولكنى حاولت جهدى إخفاءه ، وأبديت للعجوز أن من الخطأ أن تصف الاقتراض بالمذلة . فما من إنسان إلا ويحتاج إلى معونة الآخر .. فى أى صورة وعلى أى وجه .

وساد الصمت هنيهة .. ووجدت حافزاً يدفعنى إلى السؤال

عما يحدو بسيدتها إلى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء . . غير أنى ترددت ، فقد خشيت أن تظن بسؤالى أنى نادم على إقراضها . . ولكن ترددى لم يدم طويلا . . فقد أحسست — بالرغم عما قلته من عدم ميلى إلى الاستطلاع — بلهفة إلى معرفة السبب . . وبرغبة شديدة فى السؤال . . وأخيراً سألت .

ولم تجب العجوز للوهلة الأولى . . بل بدا عليها كالتى تجمع شتات أفكارها ، أو كأنما الإجابة على سؤالى تحتاجها إلى فرط روية وتدبر . . وأخيراً أجابت :

— بودى لو قصصت عليك القصة كلها . . فهل لديك صبر على سماعها ؟

وأشرت لها برأسى « نعم » فبدأت تقص :

— نشأت فى بيتها منذ نعومة أظفارى ، وهو بيت عريق كريم المحتد . . وخدمتها منذ مولدها حتى يومنا هذا . . فما فارقتها لحظة واحدة وما زلت أذكرها رضيعة أهزها بين يدى . . وقد كنت وقتئذ فى حوالى العاشرة . . وكنت أراها ياسيدى أجمل خلق الله . . فى كل دور من دور حياتها كانت نموذجاً للجمال . . كانت أبدع طفلة . . وأجمل صبية . . وأشد الفتيات فتنة وسحراً .

أجل . . إنى لأبصرها أمام عينى أشبه بزهرة يانعة

أو ثمرة ناضجة . . كل ما فيها مثالى لا هنة فيهـا ولا خطأ . . خلقها ربها فسواها .

وأذكر كيف تهافت عليها الشبان وقتئذ . . وهى مازالت فى الخامسة عشرة ، وكيف كان أبوها يضيق بهم .

ومرت الأيام . . والفتاة تزداد فى كل يوم سحراً وفتنة . حتى كان ذات يوم ففاتحها أبوها بالزواج من رجل كان يظنه أصلح الناس لها . . ولـكن الفتاة لم تجبه إلا بالصمت ، وبدا عليها وجوم شديد . . ثم عادت إلى حجرتها ووصل إلى أذنى صوت كالبكاء .

وكنت أنا أعلم الناس بما خفى من أمرها . . كنت أدرك تماماً سبب ما أصابها من حزن ، وكنت أحس مثلها بأن ذلك القول من أبيها كان صدمة شديدة لها . . وأنه قد هدم أحلامها الذهبية الجميلة . . لأن الفتاة كانت عاشقة !

ولست أود الخوض فى تفاصيل ذلك الحب وكيف بدأ ، فلست أظن به شيئاً من الغرابة ، إذ أنه كان صورة لا تختلف كثيراً عما نرى ونسمع من قصص الغرام التى لا تـكاد تتباين إلا فى التفاصيل التافهة .

ولم يكن من العسير على الأب بعد ذلك أن يكشف خبيئة نفس الفتاة . . بل لقد علم أيضاً بالفتى الذى تعلقت

به فتاته ، وجعلته رجلها المنتظر . . وبالرغم من أنه لم يجد فيه مايرضى رغبته هو . . أو يحقق الآمال التى يرجوها لابنته . . فقد أظهر ترحيباً به وأقنع نفسه بقبوله مادامت ابنته ترى فيه سعادتها وهناءها .

وتم الزواج . . وانتقلت مع الفتاة إلى بيتها الجديد . . وقد أحاطنا جو من النعيم ممتع لذيذ . . وبدت الحياة جميلة مزدهرة . . ولست أظننى فى حاجة إلى وصف ذلك السحر الذى يفيض من وكر عصفورين جميلين جمعهما الحب وألف بينهما رباط الهوى . . فملآ المكان شدواً وترنيما . . وفاضت عليهما سعادة لو أتيح مثلها للحياة الدنيا لبرأت من شقائها .

مرّت الأيام وكلنا راض مغتبط ، وأنا أعجب فى نفسى لذلك الضوء الذى يخلعه الحب على حياة الإنسان . . حتى أحسست فجأة بأن ذلك الضوء قد بدأ يخبو ، وأن البقية الباقية منه قد أخذت طريقها فى مهاوى الفناء . . لتترك الدار فى وحشة سائدة .

وحتى هذه المرحلة — مرحلة الظلمة التى تسربت من خلال ذلك السناء المشرق والضوء البراق — لست أرى فيها أيضاً كثير غرابة . . فما أظن هناك مشعلا أضاء إلا والخمود

مصيره .. وما أظن ذلك الإشراق فى ربيع الحب الذى أضاء المكان حيناً وظل بمنجاة من الغروب .

أجل .. ما كان عجيباً أن تخمد ثورة الحب وتهدأ ، بين عاشقين مضى على زواجهما فترة ليست بالقصيرة ، ولكن العجيب أنها هدأت من جانب واحد وخمدت فى نفس واحدة ، فإذا بى أرى الشعلة التى انطفأت فى نفس أحدهما وكأنما انتقلت إلى صاحبه فضاعفت ما بالنفس الأخرى ، وإذا بى أرى الرجل يتبدل أمره ويتطاير من قلبه الحب ، فحل محله الجمود والملل والضيق والتبرم ، وإذا بى أراها تزداد له حباً ، وبه ولعاً ووله .

ولم أحس فى بداية الأمر بذلك التطور الذى طرأ على حياتهما .. ولم ألمس ذلك الحزن الذى مسها ، فقد كانت صبوراً كتوماً .. حتى بدأت تطول غيبته عن الدار .. وبدأت أحس ببكائها الصامت فى سكون الليل .

وفى ذلك الوقت مات أبوها ، فورثت عنه الكثير من المال ، وخيل إلى أن الزوج قد بدأ يرق لها بعض الشىء ، لست أدرى ، أكان ذلك محاولة منه لتخفيف لوعتها على أبيها؟ أم كان له فى ذلك مآرب أخرى ؟ الله أعلم ! .

على أية حال ، لم تكد تمضى على وفاة الأب فترة قصيرة

حتى اشترى الزوج بأكثر أموالها داراً كبيرة أشبه بالقصور! أضحى هو صاحبها، ولم تجد هى فى ذلك حرجاً، فقد كانت تعتبره كنفسها، وكانت لا تجد فارقاً بين شخصيهما فما له لها، وما لها له.

وفى الدار الكبيرة بدأ الرجل حياة عجيبة، لا أظنك بمصدقها لو سردت عليك تفاصيلها.. فما أظن هناك امرأة ذاقت من العذاب مثل ماذاقته المسكينة.. وأقصد بالعذاب النفسانى القتال الذى يسرى فى النفس كما يسرى السم فى الجسد، لافرق بين الإثنين سوى أن السم يميت لساعته.. أما العذاب النفسانى فليس إلا موتاً بطيئاً.

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه ما استغرق فيه من اللهو خارج الدار.. ولم تكفه عشرات العشيقات اللاتى كان يقضى الليالى بأكملها بين أحضانهن تاركاً الزوجة الأمينة الوفية.. جالسة تنتظره على مقعد فى جوف الليل حتى ينهكها التعب والسهر فتلقى برأسها على المنضدة وتروح فى غفوة حتى أوقظها وأقودها إلى فراشها.. وهى لا تشكو ولا تتبرم.. ولا تذكره — بالرغم من هذا — بسوء، ولا تسوق إليه إذا ما لقيته فى الصباح لوماً ولا تأنيباً.. بل تلقاه بقدر ماتستطيع من البشر والبشاشة.

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه كل هذا . . حتى بدأ يخصص فى الدار جناحاً لمتعته ! ! . . لا تدهش يا سيدى . . فما قلت سوى الصدق . . أجل . . لقد بدأ يحضر عشيقاته إلى الدار ويفرد لهن حجرات خاصة .

تسألنى . . وماذا فعلت المسكينة ؟ ! ! .

لا شيء . . لا شيء البتة . . لقد استمرت تروى من ماء أجاج . . وتطعم المر والحنظل . . وهى صابرة راضية . . أو هكذا كانت تبدو . . وإن كنت لا أشك فى أن قلبها يحترق . . بل أغلب ظنى أن قلبها قد أضحى فحمة سوداء . . لقد كانت تقول إنها تحبه . . وإنها لابد أن تستر عليه . . وتخفى فضائحه . وكانت تقول إنها نوبة طيش . . سيزيلها مر الزمن . . وأن واجبها هو أن تصبر وتحتمل . . حتى تزول النوبة . . ويعود كما كان . . إنها امرأة عجيبة . . امرأة ليست من البشر فى شيء . . فما أظن أية امرأة سواها كان يمكنها أن تحتمل مثل ما احتملت .

وأخيراً . . انتهى الأمر نهاية عجيبة . . وزالت النوبة من الرجل . . نوبة الطيش التى كانت تقول عنها إنها لابد زائلة . . ولكن زوالها كان بطريقة لا تخطر لها ببال .

لقد كف الرجل عن عشيقاته . . ولكنه استبدل بهن امرأة واحدة . . زوجة جديدة ! !

إنى لأحس فى حلقى بغصة . . بأن مجرد الذكرى تقطع نياط قلبى . . وتفرى كبدى . . فما بالك بما فعله الواقع . . فى نفسها وفى نفسى ! ! .

إنها لم تثر ولم تغضب فما كان مثلها ليثور قط . . كل مافعلته أنها أغلقت على نفسها الحجرة حتى حل الظلام . . ثم رأيتها تقبل علىّ متسللة وقد جمعت متاعها فى حقيبة كأنها خادمة طريدة . . وأنبأتنى بأنها ستغادر الدار لأنها لاتحتمل البقاء . . وانهمرت الدموع من عينىّ . . وتمنيت لو استطعت أن أذهب إلى الرجل فأمزق جلده إرباً . . ولكنى لم أملك سوى أن

أتبعها . . وخرجنا نتسلل فى جنح الظلام . . كأننا شبحان من أشباح الليل .

وصمتت العجوز .. وطال بها الصمت وهى مطرقة برأسها إلى الأرض واحترمت صمتها هنيهة . . ثم قلت أستحثها على إتمام الحديث :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟ .

فهزت رأسها ببطء ثم أجابت بصوت خافت :

ـ لا شيء . . ليس أكثر مما ترى . . لقد لجأنا إلى هذه الدار القديمة ثانية .. وهى كل ما بقى لها مما ورثته عن أبيها . . واستقر بنا المقام فى هذه الدار الموحشة المظلمة والوحدة الكئيبة .

وبقى الرجل مع زوجته الجديدة . . ربة القصر الواسع الأرجاء ، الشامخ البناء ! ! .

وحاولت العجوز أن تعود مرة أخرى إلى صمتها وإطراقها . بيد أننى تذكرت السؤال الذى من أجله قصت علىّ القصة . . ورأيت أنها لم تجبنى عليه بعد ، بالرغم من هذه القصة الطويلة التى قصتها علىّ ، فلم أجد بداً من أن أعيد السؤال مرة أخرى :

ـ ولكنك لم تخبرينى بعد عما يحدو بسيدتك إلى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء .

ـ حمقاء . . بلهاء . . أو قل مجنونة إن شئت . . أتصدق

يا سيدى انها بعد كل ما حدث ما زالت تحبه . . وما زال فى قلبها حنين له وعطف عليه . . لقد حل بالرجل ما كنت أتوقع حدوثه . . لقد ثأرت الزوجة الجديدة لنا منه . . سلبته ماله وأفقدته كل مايمكن أن تفقده إياه . . لقد أضاعت كل ما حاولت سيدتى أن تصونه . . لقد أصبح القصر قصرها هى وأصبح الرجل لايملك إلا ما تجود به عليه .

وأخيراً وبعد طول غيبة . . أقبل علينا ذات يوم . . أتدرى لِمَ أقبل ؟؟ ليستجدينا بعض النقود ! ! لا ليسد رمقه . . وإنما لينال من متعه بعض ماحرمته زوجته الجديدة .

ولتتخيل ياسيدى أنها أعطته كل ما معها . . هى التى تعيش عيشة الكفاف . . فى هذه الحجرات المظلمة والأثاث الممزق البالى . . هى التى لا تعتمد فى حياتها إلا على أجر الشقة العليا وهو بضعة جنيهات لاتكاد تكفينا . . أجل لقد غفرت له وأعطته كل ما تملك .

ثم تعوّد بعد ذلك أن يأتى بين آونة وأخرى ليأخذ منها ما تستطيع إعطاءه إياه . . حتى أصابها المرض . . ورقدت طريحة الفراش . . وباتت فى أشد الحاجة إلى الدواء . . ومع ذلك فهى ترفض شراءه . . أتدرى لِمَ تبخل على نفسها بشراء

الدواء ؟. كى تحفظ له النقود حتى لا يصيبه ضيق وغضب إذا لم يجد معها نقوداً ! ! مجنونة هى ولا شك !! .

وصمتت العجوز . . فتذكرت الشاة وتذكرت القصاب وتذكرت خوفها عليه من أن يجرح أصبعه وهو يشحذ سكينه لذبحها ، وقلت لنفسى ما أشد الشبه . وحاولت أن أمنع دمعة همت بأن تطفر من عينىّ . . ثم هممت بأن أقول للعجوز شيئاً على سبيل العزاء . . ولكنى سمعت على الباب طرقاً . . وقامت العجوز لتفتح .. ودلف من الباب رجل . . أحسست بوحى خفى أنه لا بد أن يكون القصاب نفسه . . ولقد كان هو بالفعل .. وكان أكثر ما لفت نظرى منه احمرار فى عينيه وآثار تعب أو مرض بادية على وجهه .

وحيانى الرجل بيده ثم دخل إلى حجرة المريضة .

واستأذنت العجوز وعدت إلى بيتى مكرراً عليها . . إننى على استعداد لكل ما تطلب . . فأبدت أبلغ آيات الشكر والحمد . . وأنبأتنى بأنه ليس أمامها ملجأ سواى .

ولم تمض نصف ساعة حتى طرق الباب وبصرت بالعجوز وقد بدا عليها كثير من الفزع والذعر . . فهبطت إليها وسألتها متلهفاً :

ــ أطرأ على سيدتك شىء ؟؟ .

— ليس على سيدتى ، بل عليه هو ؟ !

— من ؟ ؟ .

— سيدى ! ! زوجها ! ! .

وأسرعت معها إلى الدار فوجدت الرجل جالساً على أريكة أمام فراش المريضة . . التى تركت فراشها . . لتلقاه بين ذراعيها وقد بدا عليها جزع شديد . . وكان الرجل فى إغماء تام . . فأمرت الخادمة بأن تفك له ثيابه . . وأسرعت باستدعاء الطبيب .

وفحصه الطبيب ثم أنبأنى أنه قد أصيب بنزيف فى المخ . . وأنه يجب أن يرقد فى مكانه وأن توضع على رأسه « طاقية ثلج » .

ولكن الموت كان فى عجلة من أمره . . فلم ينتظر حتى تحضر « طاقية الثلج » ، ووفر علينا مشقة التمريض ، وفاضت روح الرجل بعد ساعة . . أو بعض ساعة .

ومات الرجل بين ذراعى امرأته الوفية الطيبة ، وخرج إلى جدثه من بيتها المتواضع القديم .

ولم تمض بضعة أيام حتى أقبلت علىّ العجوز لتودعنى قائلة :

— إنها ستعود هى وسيدتها إلى القصر .

وسألتها فى دهش :

— والمرأة الأخرى ؟

فأجابت بلهجة لا تخلو من الشماتة :

— لقد شب فى حجرتها حريق أودى بها وألحقها بالرجل .

يا للعجب !! لقد هوى القصاب ، واستنقذت الشاة ، ليت لكل قصاب فيه عبرة .

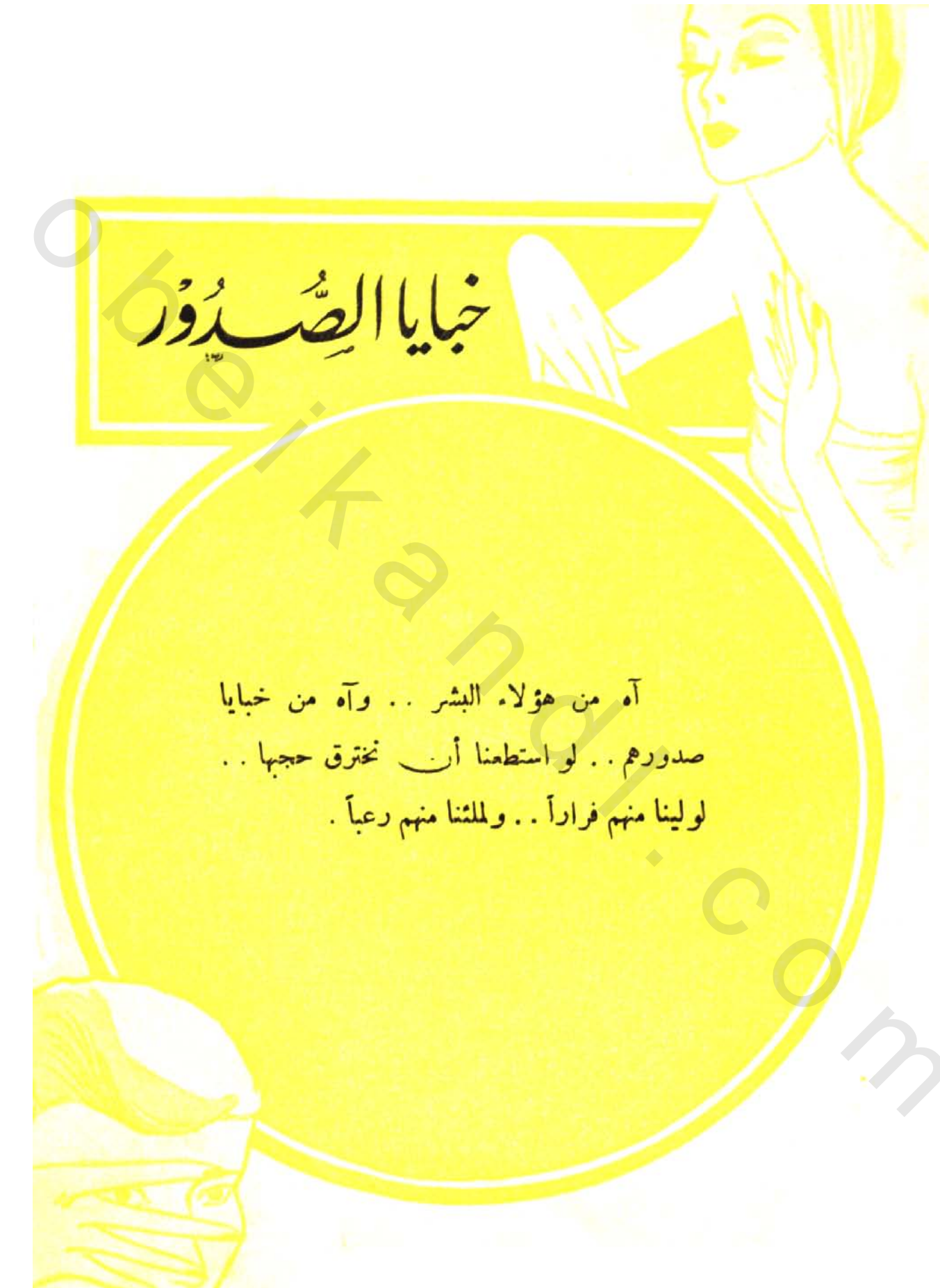

خبايا الصدور

آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا
صدورهم .. لو استطعنا أن نخترق حجبها ..
لولينا منهم فراراً .. ولملئنا منهم رعباً .

obeikandl.com

قلت لصاحبي :

— يخيل إليّ أن مهمة كاتب القصة فى عصرنا هذا قد أضحت مهمة شاقة . . فهو لا يجد من حوله مادة دسمة يغذى بها خياله . . فنحن فى عصر برود وجمود . . ليس فيه من الحوادث ما يلهم القصة ويوحى بالكتابة . . وأغلب ظنى أن مهمة أسلافه من كتاب القصة فى العصور السابقة كانت أسهل كثيراً . . حيث كانت الحياة مسرحاً للحوادث المثيره والمآسى المروعة . . التى تهيء لهم مرتعاً خصيباً يرتعون فيه بأذهانهم وأقلامهم . . ويسجلون لنا عنها قصصاً رائعة . . لأن خير ما كتب الكتاب هو ما استوحوه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع .

وقبل أن يجيب صاحبي . . رأيته قد انتصب واقفاً ومد يده مصافحاً امرأة فى منتصف العمر قد أقبلت عليه . . وقدمت إليه رجلا فى رفقتها قالت إنه زوجها ، وألقى كل منهما إلى الآخر ببعض الكلمات التافهة التى يقولها الإنسان عند ما لا يجد ما يقوله ، ثم ودعته بابتسامة رقيقة ، وانصرفت وزوجها فى سبيلهما ، واتخذ صاحبي مقعده بجوارى مرة أخرى .

وانتظرت أن يقول شيئاً عن المرأة .. ولو اسمها .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فلم أجد بداً من سؤاله :

— ترى من تكون السيدة ؟

وبدا على صاحبي شرود الذهن .. وأجابني بعد فترة سكون دون أن يكلف نفسه مشقة النظر إليّ :

— إنها دفاع عما اتهمت به عصرك من ركود وجمود .

ولم أستطع أن أفهم ما يقصد للوهلة الأولى فسألته :

— لم أفهم بعد ! أفصح قليلا .

— لست مسؤولا عن غبائك .. لقد كنت ترمى عصرك بخلوّه مما يلهم القصة ويوحى بالكتابة .. وفى صدر هذه المرأة الهادئة المظهر .. قصة تكذب سوء ظنك بعصرك .. وتلقى عليك تهمة البرود والركود إن لم تخرجها لقرائك كما هى بحذافيرها وتفاصيلها .

وبدأ صاحبي يسرد القصة .. قال :

— رأيتها ، أول مرة ، أرملة حديثة العهد بالترمل .. وكانت فى الثانية والعشرين ، ولم يكن جمالها من ذلك النوع الأخاذ الذى يبهر البصر .. ومع ذلك فقد كانت بها عذوبة ورقة ترتاح إليهما النفس ، وكان أجمل ما فيها شعرها المسترسل ، وعيناها الزرقاوان ، وأسنانها الصغيرة الناصعة

البياض . . وبشرتها البيضاء النقية . . كانت المرأة فى مجموعها مخلوقاً لطيفاً يسر المرء أن يجالسه ويتمتع بسماع حديثه والنظر إليه .

وكانت تعيش مع أمها على دخل يهيء لها حياة هنيئة لينة ، ولم تمض مدة على وفاة زوجها حتى بدأ العشاق والمعجبون يلتفون حولها .. ولكنها كانت تصدهم فى رفق .. وتخبرهم أنها زاهدة فى الزواج مرة أخرى .

ولكن أحدهم كان أشد إصراراً .. فقد كان بالأرملة الجميلة صباً مولعاً ، وكنت أعرفه معرفة طفيفة . . من ذلك المنتدى الذى تعوّدت الجلوس فيه . وكنت أعرف عنه ولعه الشديد بلعب « البوكر » . كان شاباً صغيراً على شيء كثير من الوسامة والأناقة . . تبدو عليه مظاهر الثراء . . وإن كنا نعلم جميعا — فيما بيننا — أنها لا تعدو المظاهر . . فما كان أهله يملكون كثيراً ولا قليلا . . إذ كان كل ما تبقى لهم من ثروة أسرتهم الكبيرة المعروفة لا يعدو تلك الأفدنة القليلة وتلك الدار الكبيرة الكائنة فى إحدى مديريات الوجه البحرى التى اعتكف فيها أبوه .

ولم أكن قد رأيت أباه .. ولكنى سمعت عنه ، فقد كان أحد كبار الرجال ذوى الأسماء الرنانة . . وكان يشغل منصباً

كبيراً فى السلك السياسى . . وكان أبى يعرفه معرفة جيدة ، وأذكر أنه قال لى عنه ذات مرة :

ـ إنه امرؤ عجيب . . فما رأيت رجلا تجسمت فيه مظاهر النبل وكرم المحتد ، كما تجسمت فى هذا الرجل . . إنه من ذلك النوع الذى تحس بأنه منحك منحة بمجرد أن يحييك ويقول لك « كيف حالك ؟ » . لقد أضاع كل ثروته فى اللعب والنساء . . ومع ذلك تراه كما هو . . بالمظهر نفسه وبنفس العزة والإباء .

وسألت عن عمره فأجاب :

ـ أظنه فى التاسعة والأربعين . . ومع ذلك أستطيع أن أجزم أنه مازال أجمل رجل رأيته فى حياتى . . لقد كان شديد الجاذبية للنساء . . اجتمع له كل ما يفتنهن . . لطيف المعشر ، حلو الحديث . . وحتى الآن مازال محتفظاً بذلك القوام الفارع الممشوق . . فلم يصبه انحناء ولا ترهل . . لقد ابيض شعره ولكنه مازال كثيفاً لامعاً كما هو . . وظهرت بعض التجاعيد تحت عينيه ولكنهما ما زالتا تبرقان كعينى طفل . . وما زالت الضحكات الحلوة تشيع على كل وجهه .

ومرت الأيام وأواصر الصداقة تزداد بين الفتى والسيدة الصغيرة . . وذات يوم دعاها وأمها لزيارة دارهم الكبيرة

حيث يقطن أبوه . . وأغلب الظن أن الفتى كان يريد أن يعرضها على أبيه . . الذى لم يكن يميل إلى مثل هذا الزواج . . فقد كان يريد لابنه أكثر من أرملة متوسطة الحال . . كان يريد فتاة ثرية تستطيع أن تعين ابنه بمالها على أن يحيا تلك الحياة التى تعوّدها .

وعقب الغداء جلس الأب والأم وحيدين فى حديقة الدار الواسعة المهملة ، وقال الرجل للسيدة :

ـ الواقع ياسيدتى أن ابنتك آية فى الجمال . . ولم يعد يدهشنى الآن أن يقع الفتى فى حبها . . فإنها تستحق الحب . . ولأصارحنك القول إننى كنت أوثر أن يتزوج ابنى امرأة أوفر مالا . . ولكنى لم أكد أراها حتى أدركت أنها تستحق أن يضحى المرء من أجلها بكل شىء لديه . . وأصبح لا يسعدنى شىء قدر أن تقبل بزواجه .

وفى هذه اللحظة كان الفتى يعرض زواجه على المرأة الصغيرة فى ناحية أخرى من الحديقة . . وبعد هنيهة أقبل على أبيه يزف إليه نبأ خطبته .

وتم الزواج . . وذهبت لأهنئهما فى الطبقة الأنيقة التى استأجرها فى الزمالك . . وكان يلوح جلياً أن الفتى مازال مولعاً بصاحبته . . فقد بدا فى عينيه بريق الحب . . ولكنى

لم أستطع أن أتبين إلى أى مدى كانت تبادله الحب . . فقد كانت من ذلك النوع الذى لا تظهر مشاعره واضحة على وجهه ، وإن كنت لم أر هناك ما يمنع من أن تبادله الحب نفسه . . فقد كان فى الفتى كل مايجذب النساء إليه . . جمال . . وشباب . . ومرح . . ورقة حديث .

ومرت الأيام فأخذت سحب الحب تنقشع عن رأس الفتى . . وبدأ ينغمس فى اللعب . . ولم تمض فترة قصيرة حتى كان قد استنفد ما كان مع السيدة من مال . . وأخذ يستدين من هنا ومن هناك .

ووجدت الزوجة أن خير ما تفعل لتحافظ على كيانهما البيتى هو أن تلجأ به إلى دار أبيه ، فتسقط عن عاتقهما تلك التكاليف الباهظة التى يدفعانها ثمناً للظهور بالمظهر اللائق . وتبعد به عن ذلك الوسط الملوث والحياة المليئة بالخمر والميسر . ولم يكن أيسر عليها من ذلك فقد أضنتها تلك الحياة الصاخبة ، وكان بنفسها ميل إلى الهدوء والعزلة .

ولم يمانع الفتى بادىء بدء ، ورحب الأب بالزوجين الصغيرين فقد ملآ البيت بهجة وحبورا . . وبدأت السيدة الصغيرة تتخذ مكانها كربة للدار ، فأعادت تنظيمها وتجديدها ، وتعهدت الحديقة بالعناية والتنسيق ، فإذا بالدار تعود

إلى سابق رونقها فقد كانت السيدة سليمة الذوق خبيرة بالأزهار والحدائق .

وسر الفتى أن يرى ذلك الانسجام بين زوجته وأبيه ، فقد كان يحب كليهما ، وكان انهماكهما سوياً فى تجديد الدار وتنسيق الحديقة ، يتيح له بين آونة وأخرى أن يفر إلى القاهرة ليسلى نفسه بالانغماس فى اللعب مع صحبه . وعلى مر الأيام أخذت فترات الفرار تكثر وتطول .

ومرة واحدة - ودون أن يدرى لذلك سبباً ولا علة - بدأ الشيطان يهمس فى نفسه ، ويوسوس فى صدره ، وتملكته ريبة غامضة وشك مبهم ، لم يستطع أن يحدد بالضبط ما هو ، ولكنه كان يخيل إليه أن زوجته لم تعد تأبه له كما كانت من قبل ، وأن أباه قد أخذ يضيق به ذرعاً ، فقد بدأ يحس بأنه لم يعد له موضع فى أحاديثهما ، وأن وجوده قد أضحى غير مرغوب فيه ، وبالرغم مما كان يعلمه الفتى عن أبيه وماضيه مع النساء ، فإن شكوكه كانت من الفظاعة فى حدٍّ لا ينبغى أن يسمح لها بالتسرب إلى نفسه ، على أنه كان يستطيع فى بعض الأحيان أن يلحظ نظرات عابرة بين الاثنين ، لو رآها بين غيرهما لقال (عشاق) ، ولكن بين أبيه وزوجته فحاشا لله ، إن ريبته لا يصدقها عقل بشرى !

ورأى الفتى أن خير ما ينقذه من أوهام نفسه .. هو أن يعود بزوجته إلى القاهرة فيباعد بينها وبين أبيه .

وذات يوم أنبأهما أنه قد عزم على أن يعود للسكنى فى القاهرة مرة أخرى ، وأن عليها أن تعد نفسها للسفر .

ودهشا كلاهما ، وأجابه أبوه أنه ليس لديه من المال ما يعطيه له لينشىء بيتاً آخر . . وأجابت الزوجة إن القليل الذى كان لديها قد استنفده فى اللعب .

وصرخ الفتى غاضباً ، وأجابها أنه قد أخطأ بزواجه من أرملة !

ووجمت الزوجة وصبغها الاصفرار . . وصاح به أبوه ينهره :

— يجب أن تعلم كيف تخاطب سيدة !

— لست فى حاجة إلى دروسك بعد .

وخرج الفتى مغضباً من الحجرة . . وسافر إلى القاهرة ولم يعد إلا فى اليوم التالى . . فقابلته زوجته بصداقتها وبشاشتها التى عودته إياها كأنما لم يحدث شىء . . أما الأب فما حال عن بعض برودته وفتوره . . وإن لم يمرّ على لسان أحد منهم ذكر لما حدث .

ولكن الأمور سارت بعد ذلك من سيء إلى أسوأ فقد ازداد التوتر بين الابن وأبيه . . ولم يعد يحاول مبارحة الدار

بعد ذلك ، فزادت أعصابه توتراً . . وذات يوم ساء السيدة هذا الضيق الذى أصابه فسألته ببساطة وبراءة لِمَ لا يحاول أن يرفه عن نفسه بالسفر إلى القاهرة ليرى أصدقاءه بين آونة وأخرى كما كان يفعل من قبل ؟

واعتقد الفتى أنها تريد التخلص منه ، فزادت ريبته وعصف به الشك . . حتى انتهى به الأمر إلى مراقبتهما والتجسس عليهما . . فتارة يدخل عليهما الحجرة فجأة . . وتارة يتبعهما إلى الحديقة . . ولكنه لم يجد بينهما أكثر مما يجد أى زوج بين زوجته وأبيه .

وزادت حالة الفتى سوءاً ، وبدأت أعصابه تتحطم . إنه لا يستطيع أن يعثر على دليل يؤكد ريبته . . ولا يجد أى أثر لتلك الخديعة التى يتوهمها ، ومع ذلك فهو موقن أنهما يخدعانه . . واثق بأن بينهما صلة أكثر من تلك الصلة البريئة التى يستتران وراءها .

وأحس الفتى بأنه أضحى من فرط الريبة على وشك الجنون . . بل إنه جن فعلا . . فلقد رحل إلى القاهرة ذات يوم . . ثم عاد وقد استعار مسدساً من أحد أصدقائه . . لقد نوى أن يقتلهما معاً . . فور أن يعثر بأقل دليل يشير إلى تلك الريبة التى تنهش قلبه .

ولا أدرى كيف انتهى الأمر بتلك الفاجعة .. فكل ما علمته من خلال المحاكمة أن الفتى دخل على أبيه ذات مرة بقصد تصفية المسألة وإنهائها على وجهٍ .. ومصارحته بشكوكه كى يضع لها حداً .

وقامت بينهما مشادة عنيفة انتهى بأن أطلق الفتى النار على أبيه وهو فى نوبة غضبه فأرداه قتيلا .. وعندما أدرك ما فعل، انهار على جسد أبيه يبكى بجنون كأنه طفل صغير .. وأقبلت الزوجة والخدم .. فوجدوه يهم بإطلاق الرصاص على نفسه فأمسكوا به ونزعوا المسدس من يده .

وكانت جريمة الفتى هى القتل مع سبق الإصرار .. ولم يكن هناك أى سبيل للدفاع عنه وإنقاذه إلا سبيلا واحداً وهو ذاك السبيل الذى حاول محاميه طرقه عندما أتى إلى مقابلة السيدة الصغيرة .

لقد كنت هناك وقتئذ .. وكانت أعصابها محطمة تماماً .. وأسوأ من ذلك أنها كانت حاملا وعلى وشك أن تضع .. وكنت أحاول التخفيف عنها .. عندما دخل المحامى .. وبعد بضع كلمات مما لم يكن بد من قولها، إتجه إلى غرضه مباشرة :

— ياسيدتى إنك أنت الوحيدة التى تستطيعين إنقاذ زوجك .

ـ أنا !! وكيف ؟ ؟

ـ اعذريني ياسيدتي ، فأنا أعلم أنه مطلب شائك وطريق وعر . . وأن التضحية التي سأسألك بذلها هي أقصى ما تستطيع امرأة أن تقدمه . . ولكنها السبيل الوحيد يا سيدتي .

وصمت الرجل هنيهة . . ولكنها أجابته بصوت هادىء النبرات :

ـ استمر .

ـ السبيل الوحيد لإنقاذه . . هو أن تعترفي بأنه كانت هناك بينك وبين المرحوم أبيه علاقات غرامية .

وكدت أصيح بالرجل : يالليجنون ؟ أي حماقة تلك التي انتابت الرجل ؟ !

والتفت إلى السيدة لأهدىء من روعها . . ولكني وجدتها صامتة ساكنة . . وقد أطرقت برأسها هنيهة ، ثم رفعت عينيها إلى الرجل ولم تزد على أن قالت :

ـ سأفعل ياسيدي .

وانتهت المحاكمة بتبرئة الزوج وإرساله إلى مستشفى الأمراض العقلية بعد أن برت السيدة بوعدها وعادت إلى العيش مع أمها .

ثم علمت بعد ذلك أنها قد وضعت طفلا . . وبعد شهرين

علمت أن الطفل قد مات .. وذهبت لزيارتها فوجدتها شديدة الحزن .. فقلت أخفف من لوعتها :

ـ لا تحزنى فقد رحمه الله .. لقد أخذه قبل أن يعرف أن أباه قاتل مجنون !

وانتفضت المرأة ورفعت عينين حجبتهما سحابة من الدموع وقالت فى صوت مبحوح :

ـ لم يكن أبوه بقاتل ولا بمجنون .. لقد كان أبوه خير الرجال .. إنى لم أقل فى المحكمة غير الصدق !

وقف شعر رأسى .. ولم أنبس ببنت شفة .. وغادرت المرأة فلم ألقها إلا اليوم معزوجها الثالث .. قانعة راضية .. كأن لم تصدم حياتها حادثة ولا كارثة .

وصمت صاحبى هنيهة ثم أردف كأنه يحدث نفسه :

ـ آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا أن نخترق حجبها .. لولينا منهم فراراً .. ولملئنا منهم رعباً .

صاحبة الحقيبة

ولم يحس الفتى بخيبة أمل . . بل على العكس لقد سرّه ألا تكون المرأة خير من ذلك .. وأسرع إلى حقيبته فحملها فى يده ، وجذب المرأة بيده الأخرى إلى حجرته .. فقد كانت صاحبة الحقيبة .

obeikan.com

ما أشبه

حياتنا فى هذه الدنيا بطريق متسع ، رحب الأرجاء ، ساطع الأضواء . . تبدو فيه بين آونة وأخرى منعطفات وأزقة مظلمة ضيقة . . كثيرة الانحناء والالتواء . . والإنسان فى هذه الحياة مخلوق عجيب . . إذ ليس فى استطاعته أن يداوم السير فى هذا الطريق المتسع المضىء ، السوى المستقيم . . فهو يرى دائماً ما يستهويه فى تلك الأزقة المظلمة . . ويحلو له أن ينعطف بين آونة وأخرى فيخوض ظلماتها . . والفرق فى هذه الحياة بين إنسان وآخر ، هو قدرته على العودة سريعاً من أزقة الحياة إلى طريقها المتسع المستقيم ، وفى قدرته على ألا يضل سبيله فيقضى عمره يتخبط فى المنحنيات والمنعطفات ، فلا تعود عيناه تبصران النور .

وما نظن أن إنساناً استطاع فى هذه الحياة أن يسلك بنفسه ذلك الطريق السوى المعبد . . دون ما يحاول مرة . . أو مرات . . أن ينعطف بها من تلك الأزقة . . سواء أكان فى محاولته تلك متستراً أو مكشوفاً . . وسواء أكان ذلك منه بجسده أو بذهنه . . فكل امرىء — مهما بدا من براءة ظاهره وسلامة مسلكه — له أزقته التى تفرعت من طريق حياته . . والتى غمر فيه نفسه لحظة أو لحظات . . ووجد فى ذلك الانغمار

متعة ونشوة .. ولذة مسروقة مختلسة لم يجدها فى ذلك الطريق الحافل الصاخب .. أجل .. كل امرىء قد ذاق متعة الأزقة ، إن لم يكن بلسانه فبجنانه .. وإن لم يكن باللمس فبالحس .. اللهم إلا الأنبياء والمرسلين .

ولم يكن صاحبنا ليتطاول بنفسه إلى زمرة الأنبياء والمرسلين .. بل كان يعلم تمام العلم أنه إنسان كغيره من البشر .. ولكنه كان مع ذلك يعتقد أنه أقلهم انعطافاً فى أزقة الحياة .. بل لم يكن ليعتبر انعطافه انعطافاً بمعنى الكلمة ، إذ كان كل ما يفعله لا يزيد على أن يمد بصره ليتطلع إلى ما فى تلك الأزقة .. ولينعم فيها ببصره وبخياله .. ثم يعاود السير فى طريقه مرة أخرى .

كان يعتقد أن هذا هو أهون الشر وأيسر الخطايا .

وجلس الفتى يستعرض فى ذهنه ما مر به من أزقة فى طريق حياته .. وشرد فيها بصره من نافذة القطار .. وأخذت المناظر تتتابع أمام عينيه فى سرعة خاطفة .

لم يحس الفتى بأنه شرير .. ولم ير أنه اقترف فى تلك الأزقة ما يشينه أو يورثه الندم أو الخجل .. فقد بدأ حياته بحب انتهى بزواج فلم يحد فيه عن الطريق المستقيم .. ومنذ زواجه لم يزد ما صادفه فى طريقه من أزقة على عدد محدود

يعد على الأصابع كان يمر بها مر الكرام .. ولم يزل يذكرها تماماً ، فقد كان أولها تلك الفتاة الشقراء التى تعوّد أن يلقاها كل يوم فى طريقه إلى عمله .. وابتسمت له ذات مرة .. ثم تحدثا سوياً .. ولم يزد كل ما قام بينهما على ذلك الحديث .. وكان ثانيها تلك الفاتنة ذات الوجه الخمرى المتورد .. التى كان مرآها يحدث فى نفسه هزّة ونشوة .. واجترأ مرة على مخاطبتها فجاذبته حديثاً ليناً رقيقاً .. ثم عادت وأنكرته .. وثالثها .. ورابعها وخامسها .. وكلها لا تزيد على علاقات سطحية عابرة .. أو إعجاب من طرف لا يحس به الطرف الآخر .

وكان الفتى يتخيل أن تلك الأيام التى قد أضحى عمله يضطره فيها إلى السفر إلى الإسكندرية بين آونة وأخرى ستكثر من تلك الأزقة فى طريقه .. ولكنه — حتى الآن — لم ير إلا طريقاً يستقيم على مدى البصر .. حتى أحس بالملل يتطرق إلى نفسه .. وبات يتمنى لو يسنح له منعطف يزج بنفسه فيه .. خلال تلك الأيام التى يشعر فيها ببعض الحرية بعيداً عن امرأته .

وعندما وصل القطار .. كان الليل قد أرخى سدوله .. فقام الفتى وأدلى بحقيبته من النافذة إلى أحد الحمالين الذى حملها مع بضع حقائب أخرى وسار بين الجموع المتحركة إلى الخارج .

وأشار الفتى إلى إحدى عربات الأجرة .. وبعد لحظات كان الحمال يدفع بالحقيبة فى داخلها .. وتحركت العربة تحمل الفتى إلى « الفندق » الذى تعوّد النزول فيه .

وأحس بالكثير من الراحة حينما ضمته الحجرة الهادئة الأنيقة . ولم يكن فى نيته أن يسير تلك الليلة ، فقد أنهكه ذلك الجهد الذى بذله طوال يومه وعزم على أن يأوى إلى فراشه مبكراً ليستعيد نشاطه .

وقام إلى حقيبته ليخرج منها ما يحتاجه إلى النوم .. ولكنه لم يكد يفتحها حتى بدرت منه صيحة دهش . فقد ذهل حين وقع بصره على ثوب حريرى أخضر لا يمكن أن يكون له .. وأدرك للوهلة الأولى أن الحقيبة قد بدلت . وبالرغم من أن ما فى حقيبته لم يكن بذى قيمة فيشعره فقدها بخسارة جسيمة — إذ كانت أوراقه الهامة موضوعة فى حقيبة صغيرة حملها فى يده — فقد تملكه الضيق .. إذ لم يكن ليستغنى قط عن البيجاما ، والشبشب ، وأدوات الحلاقة وغيرها من التوافه اللازمة لكل رجل .. كذلك لم يكن يسره أن تقع تلك الأشياء الخاصة تحت بصر شخص غريب .. أغلب الظن أنه يحملق فيها الآن كما يحملق هو فى هذه الحقيبة .. وساءه

أكثر من هذا وذاك أن يكون ذلك الشخص .. امرأة ! فقد بدا جلياً أن الحقيقة لا يمكن أن تكون إلا لامرأة !!

ونفذت إلى أنفه رائحة عطر يفوح من الثوب الحريرى الأخضر .. فتركته ثملا نشوان .. لقد كان عطراً عجيباً .. ما عرف الفتى مثله من قبل !!

obeikandl.com

وأغلق الحقيبة ليفحصها من الخارج . . فإذا بها تماماً كحقيبته . . الحجم نفسه . . واللون نفسه . . لقد كان الحمال معذوراً . . فما من أحد يستطيع أن يميز إحداهما من الأخرى . على أية حال لم يكن الخطأ بالشيء الذى يستحيل تداركه ، فما عليه إلا أن يرسل الحقيبة إلى ناظر المحطة . . ولا شك فى أن السيدة ستعيد حقيبته فيستعيدها من هناك . . ومد يده إلى الجرس ليستدعى الخادم ولكنه أعادها إلى جانبه مرة واحدة ، فقد طاف برأسه خاطر مفاجىء .

إن هناك طريقاً آخر لاسترجاع الحقيبة . . طريق يلوح فى نهايته بريق متعة . طريق يؤدى به إلى أحد تلك الأزقة التى يتمناها . . ألا يحتمل أن يكون بالحقيبة ما يدله على اسمها وعنوانها . . فيذهب هو إليها لإعادتها بنفسه ؟ . ومن يدرى . . ؟ !

وشعر بآثار خفيفة من ذلك العطر الذى نفذ إلى أنفه منذ لحظات ، فمد يده إلى الحقيبة وأعاد فتحها . . فإذا بالعطر يحتويه فى جوّه المليء بالسحر والفتنة . . وجذب الثوب الحريرى الأخضر ليكشف عما وراءه . . فإذا بصره يقع على كل ما يوحى بالأناقة والجمال .

حقاً لقد صدق من سماهن « الجنس اللطيف » . . فكل

ما فيهن . . وما حولهن . . وما يتعلق بهن . . لطيف . رقيق . لقد بدأ الفتى يحس بفرط الخجل من حقيبته ومحتوياتها . . عندما تراءى له أنها قد تكون مشرعة فى اللحظة نفسها لعينى المرأة الساحرة . . وعندما تخيل أن أول ما سيصدم بصرها . . هو ذلك « الشبشب » البالى العتيق . . وتمنى أنه لو يحضره . . ولو سار عارى القدمين . . ثم بصر بها تقلب بازدراء فرشاة الحلاقة التى لم تبق بها إلا بضع شعيرات فكأنها رأس أصلع . . وصابونة الحلاقة التى قد أضحت أثراً بعد عين .

وتذكر الفتى بقية ملابسه . . لقد كانت كلها من نوع عادى ، و « البيجامة » قد بهت لونها وبدا بها أثر البلى . . و « الفانلات » كذلك لا تخلو إحداها من نقرة أو نقرتين ، لعنة الله عليه ، إنه دائماً يؤجل تجديد حاجياته ، فلا يبدل بها إلا بعد أن تمسى فى الرمق الأخير . . لا شك فى أن المرأة ستظنه كهلا أخنى عليه الدهر .

وعاد العطر ينفذ إلى أنفه . . ويوحى إليه بأن هذا هو شذى أنفاسها وأريج جسدها الناضر البض . وبدأ يراها بعين الوهم . . أنيقة رشيقة . . ممتلئة فى تناسق واستواء . . وبصر بوجهها من خلال ذلك العطر فإذا به ساحر فاتن . . وبذلك

الشعر الذهبي المتهدل . . والأعين الملونة الفاتحة . . والفم الذى يفيض بالعذوبة والإغراء . . لقد أجاد الفتى تصورها فوضع فيها كل ما يتمنى . . ولكن هبه قد وجدها عجوزاً عجفاء . . قبيحة شوهاء . . من أولئك العجائز الأجنبيات اللاتى يتعلقن بأهداب الصبا والشباب ! لا . . لا . . هذا شيء مستحيل . . إن قلبه لا يخطىء الحقيقة !

وبدأ الفتى يفتش فى محتويات الحقيبة . . ولكنه أحس ببعض التردد . . لقد شعر بأنه يرتكب أمراً نكراً . . وترك الحقيبة ثم اتجه إلى باب الغرفة فأحكم إغلاقه تماماً كما يغلقه لو كانت معه المرأة نفسها . لقد عزم على أن يفحص كل ما فى الحقيبة قطعة قطعة . . ولم يكن يرغب فى أن يزعجه أحد .

وبدا له أن اللون الأخضر هو اللون المحبب إلى نفسها . . فكل ما وقع عليه بصره كان أخضر اللون . . المشط . . والمرآة . . وعلبة البودرة . . وأحمر الشفاه والخدود . . وأشياء أخرى لم يستطع أن يعرف فائدتها . . كل هذه كانت خضراء .

ووجد الفتى حرف « ز » على حقيبة صغيرة . . ولم يجد سواه . . فلم يستطع أن يميز اسمها بالضبط . . قد يكون زيزى أو زوزو . . أو زينب . . أو زكية . . أو زبيدة . . على أية حال إنه يرجح أن تكون «زيزى» فهو اسم حبيب إلى نفسه .

ووجد كتاباً قلبه بين يديه لعله يجد أثراً لاسم أو كتابة تهديه إلى صاحبة الحقيبة . . فلم يجد شيئاً .

ثم أبصر ثوباً للنوم . . « أخضر فستق » قد طبق بعناية بالغة . . ووضع فى ركن الحقيبة . . وبدت الدنتلا فى صدره دقيقة رقيقة . . وأمسك الفتى بالثوب بين يديه وقد علت دقات قلبه . . ومد أصابعه يتخلل طياته ويتحسس صدره .

وذهب إلى عمله فى الصباح التالى . . وقضى يومه غائب الذهن . . فقد ترك ذهنه يجول فى الحقيبة ويعبث بمحتوياتها ، ويتخيل لقاء صاحبتها الفاتنة الساحرة . . وقبيل المساء عاد إلى الحجرة وهو يحس كما لو كانت هناك امرأة تنتظره . . امرأة ترتدى ذلك القميص الأخضر . . ويفوح منها عطر ينفذ إلى القلب قبل أن ينفذ إلى الأنف .

ودخل الفتى إلى الحجرة وأضاء النور . . فرأى ما ملأه دهشاً . لقد أعدت صاحبة الفندق الغرفة للنوم . . ليس له فقط . . بل لامرأة أخرى . . لقد وجد الحقيبة فارغة على أحد المقاعد . . وأبصر أدوات الزينة قد صفت على التسريحة و « الشبشب الأخضر » الأنيق أمام الفراش . . وأبصر القميص الأخضر قد علق على المشجب . . لقد أعد كل شىء حتى بات الفتى يحس بأن المرأة موجودة فى الغرفة فعلا .

وشعر بأنه قد ارتكب خطأ . . فما كان له أن يبقى الحقيبة فى الحجرة . . ولكنه لم يستطع أن يقاوم ذلك الشيطان الذى يكمن فى نفسه . . والذى يتحرك ليحطم القيد كلما لاح له شبح امرأة فاتنة . . أو حتى نصف فاتنة . . إنه رجل متزوج . . يمثل نموذجاً لزواج سعيد . . فامرأته لا تقل فى الجمال والفتنة عن أولئك النساء اللاتى يتحرق شوقاً إليهن . . بل إنه كان فى وقت ما — قبل أن يتزوجا — لا يرى فى الحياة من هو أجمل منها . . وهى لطيفة المعشر . . ذكية عاقلة . . أمينة مخلصة . . تحبه كأشد ما تستطيع امرأة أن تحب . . وهو كذلك يبادلها الحب نفسه والإخلاص ذاته . . ومع ذلك . . ومع كل هذا كان الفتى لا يستطيع أن يقتل فى نفسه ذلك الحنين إلى الجمال والميل إلى الفتنة . . وما كان فى قدرته أن يسكت ذلك الشيطان الذى يوسوس فى صدره . . كلما بدا له وجه فاتن أو صدر مكتنز أو سوق ملفوفة ممتلئة . . لقد كان يعتبر حبه لزوجه شيئاً . . وتلك المغريات شيئاً آخر . . لا علاقة لها بالإخلاص أو بالخيانة .

وكان يشعر بأن هذه المرأة التى لم ير منها سوى الحقيبة ومحتوياتها . . قد أغرته كما لم تغره امرأة من قبل . . فقد أحس بأن فى نفسه لهفة إليها وحنيناً إلى احتوائها بين ذراعيه .

وخطر له فى تلك الليلة أن يغتسل بقطعة من الصابون المعطر وجدها فى الحقيبة . . وكانت القطعة قد استعملت من قبل . . فأحس وهو يمس بها جسده . . بأن تياراً يسرى فى كيانه . . لقد مست القطعة من قبل جسدها اللدن الغض .

وتمدد فى فراشه وقد فاح منه ذلك العطر العجيب . . لقد أحس بأن المرأة قد باتت منه على قيد خطوات . . وأنهما قد أصبحا جسداً واحداً .

وتمطى الفتى وتثاءب . . ومد يده ليمسك بالكتاب الذى وجده فى الحقيبة . . ولكنه ما كاد يضع يده على غلافه حتى شعر بالباب يفتح فجأة ودون سابق إنذار . . وإذا بزوجته تقف بهذا الباب وقد علت وجهها ضحكة مشرقة . . كأنما قد سرّها أن تفاجىء زوجها .

ولم تطل الضحكة ، فقد حل محلها دهش وذهول سرعان ما تحوّل إلى غضب شديد ! إن زوجها لم يكن وحده ، لقد كان مع امرأة أخرى ، وتلك آثارها تدل عليها .

وصعق الفتى فقد وجد أن من العسير عليه أن يحاول إقناعها بالحقيقة ، وأن المسألة كلها خطأ فى الحقيبة ، فقد كانت كل المظاهر توحى بأنه ينتظر امرأة ، وأن المرأة ستبيت معه ليلته .

وقبل أن يفتح الفتى فاه ليفسر الأمر ، أبصر الخادم يطل برأسه من الباب ليخبره فى أدب أن امرأة تريده !

يا للكارثة ! « جاءك الموت يا تارك الصلاة » .

أى امرأة تلك التى تريده فى ذلك الوقت وهو الذى لم تسأل عنه امرأة قط ؟ . أى ظروف خرقاء تلك التى دفعت امرأة — أياً كانت — إلى السؤال عنه فى ذلك الوقت الذى لا يتمنى فيه شيئاً ، سوى ألا تسأل عنه امرأة ؟ ! .

ولم تطق الزوجة صبراً فانهارت على أحد المقاعد وعصف بها الحزن فاستغرقت فى بكاء عنيف .

ووقف الفتى حائراً هنيهة ، ثم خرج من الحجرة ليرى المرأة التى تريده ، فإذا بها عجوز متصابية قد ارتدت ثوباً أخضر ، واستطاع الفتى أن يلمح على حقيبة يدها حرف « ز » ، ثم أبصر فى ركن الصالة حقيبته المفقودة !

إذاً فهذه صاحبة الحقيبة ! . ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على العكس ، لقد سره ألا تكون المرأة خيراً من ذلك ، وأسرع إلى حقيبته فحملها فى يده وباليد الأخرى جذب المرأة إلى حجرته ، وصاح بزوجته :

— هذه هى المرأة التى تريدنى .

ثم صاح بالمرأة :

ـ أخبريها ماذا تريدين !.

وتعاون الثلاثة على إعادة حاجيات المرأة إلى الحقيبة، وشرد ذهن الفتى فأبصر طريق حياته يبدو مستقيما كما كان، وحمد الله أن انعطافه كان فى إحدى تلك الأزقة القصيرة التى سرعان ما يعود المرء منها إلى طريقه السوى مرة أخرى .

مجانين البريد

كان الفتى العاشق أكثرهم لهفة إلى البريد ،

حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة . .

ويسميه فيما بينه وبين نفسه « مجنون بوستة » . .

كان الطريق طويلا ، والسفر يملأ النفس وحشة ومللا ، فما تقع العين إلا على صفرة الرمال الممتدة المترامية . . حتى ليرتد البصر من فرط الحملقة فى لاشىء كليلا متعباً ، ويصيب النفس ضيق وتبرم عندما تمر بها مئات الأميال من الصحراء القفرة الجرداء . دون تغير ولا تبدل ، فتغرق فى لهفة لأن تبصر أثراً من آثار الحياة . ومهما كان بائساً فإنه يقطع به ذلك الحبل الطويل من الجمود والسآمة .

كانت العربتان تنهبان الأرض نهباً . وقد جلس فيهما صاحبنا مع بضعة جنود فى طريقهم من الواحات البحرية إلى القاهرة وقد خيم على الجميع صمت وسادهم سكون . وجلسوا فى أماكنهم لا تبدر منهم إشارة ولا حركة اللهم إلا تلك الهزات والقفزات التى كانت لاتفتأ تراودهم بين آونة وأخرى كلما صادفت العربة ثلمة من ثلمات الأرض .

وبدا صاحبنا فى شرود تام عن كل ما حوله . لقد كان جالساً فى العربة « البيك آب » إلى جوار السائق بجسده فقط ، أما ذهنه فقد كان فى غيبة بعيدة ، إذ كان يحلق به فى أجواء تختلف كل الاختلاف عن ذلك الجو الذى يشتمله جسده . .

أجواء لذيذة ممتعة . لا قفراء ولا جرداء . لا وهاد ولا نجاد ، بل خضرة ونضرة ، وسحر ونشوة .

لقد تناهى بذهنه إلى القاهرة ، فقطع تلك البيداء الشاسعة فى لمح البصر . تاركا جسده يعلوه الغبار وتحطمه « المسطبات » . وفرّ بتفكيره حيث المدينة الصاخبة يستعرض تلك الأمنيات التى هى على وشك أن يحققها بعد بضع ساعات .

لقد مضى عليه عام منذ أن غادر القاهرة آخر مرة . واستقر مع وحدته فى الصحراء التى تشرف على الواحات البحرية ، وها هو ذا يعود إليها اليوم بعد فرط حنين ، وطول لهفة وشوق . ما أعجب أمره ! كيف استطاع أن ينتظر تلك الشهور الطويلة دون أن ينفد صبره وهو اليوم يتعجل الدقائق والثوانى !

هذه الشهور التى مرت عليه دون أن يبصر فيها وجهاً جميلا . أو يسمع صوتاً عذباً . أو يمتع بلقاء هنىء . كيف استطاع احتمالها ؟ ! لا شك فى أن الفضل بذلك يرجع إلى تلك الكوكبة من الرفاق الذين تفيض نفوسهم مرحاً وتشع قلوبهم بشراً . والذين جعلوا من تلك البقعة الموحشة موطناً للضحك والسرور . وخلقوا من الملل والكآبة أنساً وحبورا .

كانت حياتهم سلسلة فكاهات وأضاحيك . حتى أنه ليكاد

يجزم بأنه ما ضحك فى حياته قط قدر ما ضحك وقتئذ . كان مرح الشباب يهيء لهم مادة من الضحك لا تفنى فكانوا يضحكون من كل شيء بل من لا شيء .

وكان أكثر مايضحكهم ، هو صاحبهم العاشق ، ولم يكن تميزه بتلك الصفة ليعنى أنه لم يكن بينهم عاشق سواه ، بل على العكس . لقد كانوا كلهم عشاقاً . فالعشق والصبا توأمان وهما صنو الشباب . ولكنهم اختصوه بتلك الصفة لفرط ما به من وله وصبابة . ولأنه كان عاشقاً « مستجداً » إذ كان حديث عهد بالخطبة . وكان رحيله إلى ذلك المكان النائى قد حرمه من أمتع أيامه وأهنأ لياليه . وزاده صبابة على صبابته وأضرم فى نفسه نار الشوق ولهيب الوله . ولم يكن الفتى العاشق ليقل عن صحابه ميلا إلى المرح واللهو . بل ربما كان أكثرهم دعابة وألطفهم فكاهة . فلم يكن فى هواه بالباكى الملتاع الذى تركت الفرقة عنده أشجاناً وأحزانا . بل جعلت منه منبعاً للتسلية ومصدراً للطرب والمرح .

كان الفتى لا يأتى شيئاً سوى الغناء ، وسرد الشعر ، والجلوس على حجر أمام مكتب البريد ! . أما الغناء فقد كان ولوعاً بالمواويل يحفظ منها كمية هائلة . وكانت له قدرة عجيبة على إلقائها . وكان أحبها إلى قلبه موال ما فتىء يردده

فى كل آونة ، وهو « يابو الطقيه الشيكه مين شاغل بالك ؟ » .
أما الشعر ، فقد وعت منه ذاكرته كل ما قيل فى الهوى والعشق ، والغزل والتشبيب مما للمجانين والعقلاء وللأحياء والأموات . أما جلوسه أمام مكتب البريد فمسألة فيها كثير من الطرافة .

كان مكتب البريد فى البحرية ـ وأغلب الظن أنه ما زال ـ عبارة عن حجرة بجوار دار المأمور ، ولم يكن هناك شىء يثير الحنق فى نفوس الصحاب المرحين ، ويملؤهم ضيقاً وغضباً قدر تأخر البريد الذى لم يحدث مرة واحدة أن وصل فى موعده . فقد كانت وسيلة نقل البريد بين القاهرة والبحرية ، وهى مسافة تقرب من الأربعمائة كيلومتر (ليس بينهما متر واحد مجهز بالأسفلت) ، هى عربة « فورد » بلغت من الكبر عتيا . شعارها فى التأنى السلامة . فهى تكره العدو . حتى لتخالها فى بعض الأحيان تمشى القهقرى . وكثيراً ما ينهكها السير ، فتقف فى الطريق لتستريح ، وقد تطول بها الراحة إلى حد أن ينسى سائقها أهو ذاهب إلى القاهرة أم عائد إلى البحرية . وكثيراً ما كان أصحابنا يهجمون على عربة البريد وبنفوسهم لهفة إلى ماحملته إليهم فإذا بها بعد طول غيبة ، قد أعادت إليهم بريدهم الذى رحلت به .

وكان الفتى العاشق أكثرهم لهفة إلى البريد، حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة، ويسميه فيما بينه وبين نفسه، «مجنون بوستة». فقد انتهى الأمر بالفتى من فرط

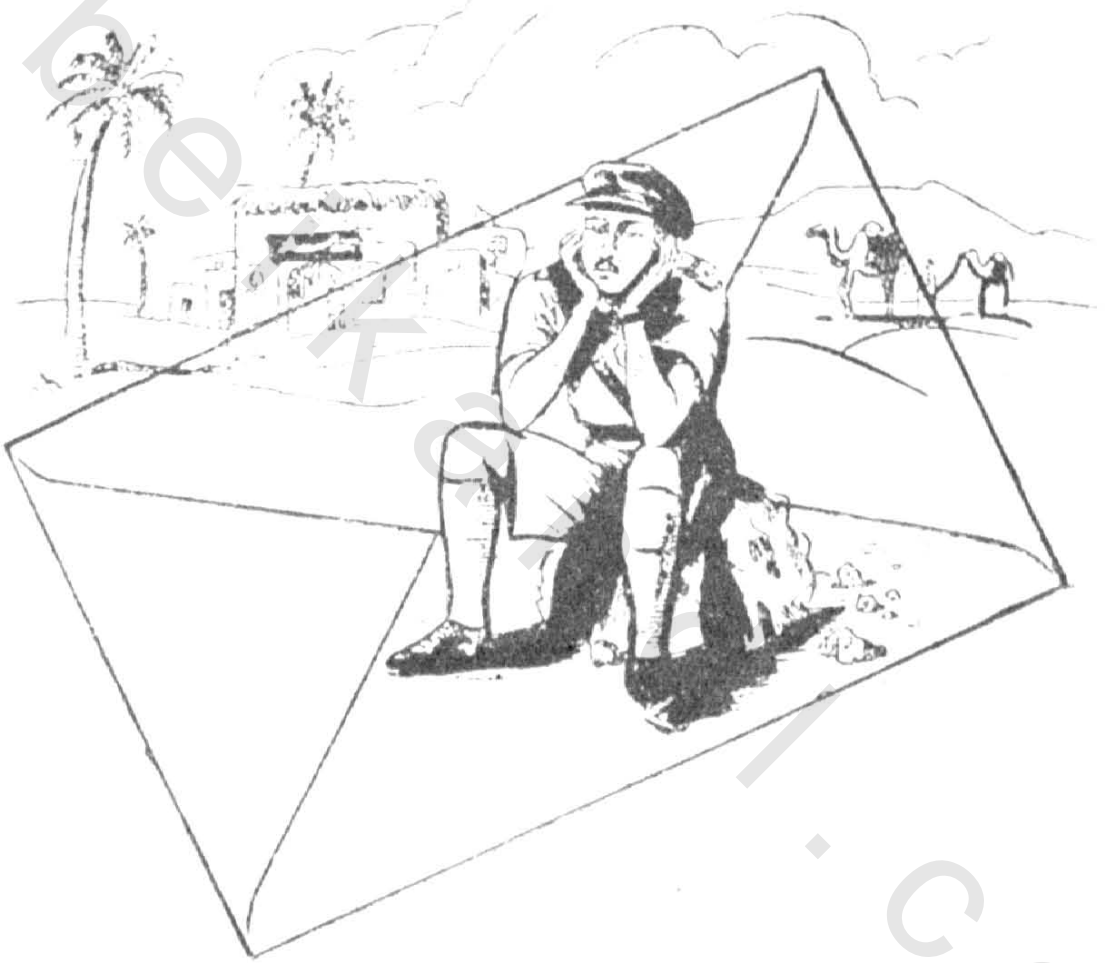

ما أصابه من تأخر البريد، أن انتقى حجراً ووضعه أمام حجرة البريد. فلا تكاد الشمس تشرق حتى يتخذ محله عليه مضرباً عن كل أعماله. ولا يفارقه حتى تلفه ظلمة الليل.

ومرت الأيام والرفاق فى مجونهم ومرحهم. حتى خوّلوا

للعودة إلى القاهرة فى أجازات قصيرة ، الواحد تلو الآخر . ولم يكن هناك شك فى أنهم يرون أن حقهم فى أن يكون البادىء بالإجازة هو صاحبهم العاشق . ولكن الفتى أصيب فجأة بالملاريا . فإذا هو لسوء الحظ طريح الفراش قد حطمته الحمى ونهكت قواه . فوقع الاختيار على صاحبنا ذاك الذى قد جلس فى العربة وقد سبق ذهنه جسده إلى القاهرة الصاخبة .

جلس الفتى يرقب فى رأسه . كيف هو سيقضى الأيام الخمسة التى صرحوا له بها .. خمسة أيام فقط ؟ ! . لقد كان عليه أن يفكر جيداً فى كيفية الانتفاع بها وإلا سرقه الوقت وأفلتت منه تلك المتع التى كان يحلم بها .

لقد كان أول ما يجب عليه عمله . هو أن يخفف من تلك المهام الثقيلة التى كان يجب عليه أن يؤديها وأولها هو زيارته لبيوت رفاقه وإيصال رسائلهم إليها . وكان عليه أن يبدأ ببيت صاحبه العاشق . وتلك هى أثقل المهام . فقد كان يكره أن يكون رسول شر ، وأن يحمل إلى الناس من الأنباء ما لا يسر . ولكنه كان مضطراً لأن يقابل خطيبة صاحبه ويحمل إليها نبأ مرضه بالملاريا مخففاً قدر الإمكان ويطمئنها عليه ويبلغها أشواقه . وعليه بعد ذلك أن يقوم بتلك الزيارات الرسمية التى لا بد منها . على أية حال يجب ألا يعطى لكل

هذه الأمور السخيفة أكثر من يوم واحد ثم يتفرغ بعد ذلك إلى ما هو أهم وأمتع. أجل. عليه أن ينظم وقته بحيث يتسنى له أن يقابلهن جميعاً. وأن يعوّض نفسه ما فاته فى خلال تلك الغيبة الطويلة.

* * *

الفتى الآن قد وصل إلى داره فعلا بذهنه وجسده معاً. وقد انتهى من احتضان وتقبيل كل من فى الدار، وخلع حلته العسكرية وأزال عناء السفر. ثم ارتدى البدلة «الكحلى» والياقة «المنشية». وهى أرصن ما يمتلك. ووقف أمام المرآة لحظة. ثم انطلق من الدار وسط عاصفة من احتجاجات دون أن يأبه لرجائهم بأن يمكث بينهم قليلا فيطفىء شوقهم اليه.

لا لا، إن المدة خمسة أيام فقط. إنه فى عجلة من أمره! وبعد فترة قصيرة كان الفتى يسير فى (شارع الملك) يحملق فى أرقام الدور حتى وقف أخيراً أمام الرقم المطلوب.

يا للعجب! . أهذا هو حقاً بيت الخطيبة المطلوبة. إنه لم يتخيل قط أنه بمثل هذه الفخامة. لا شك فى أنها (لقطة). ترى كيف استطاع صاحبه العثور عليها!

ودفع الفتى الباب الحديدى وعبر الحديقة الواسعة الغناء

ثم صعد بضع درجات وضغط الجرس ، ولم يطل انتظاره فقد فتح البـــاب وأطل منه وجه لم يشك فى أنه وجه خطيبة صاحبه .

أجل إنها هى بعينها ، كما أبصرها فى الصورة التى أراه إياها ! ! بل لقد كانت فى الحقيقة تبدو أصغر منها فى الصورة . وتأملته الفتاة هنيهة متسائلة بعينيها عما يطلب ، ولـكنه لم يكد يفتح فاه بالحديث حتى صاحت باسمه فى دهش كأنما قد استطاعت تمييزه فجأة وطلبت منه الدخول مرحبة دون كلفة .

ودهش الفتى عندما علم أنها عرفته من بعض الصور التى أخذت لهم مع صاحبه فى الصحراء . وأدهشه أكثر من ذلك أنها تعرف عنه وعن رفاقه الشىء الـكثير .

وجلس الاثنان فى حجرة تطل على الحديقة وكانت الشمس قد توارت فى الحجاب ولم يبق من ذكراها إلا فلول من الشفق الأحمر قد أخذت تنحدر أمام جيوش الظلمة .

وبدأ الفتى يفـكر كيف يسوق إليها نبأ مرض صاحبه دون أن يزعجها . وأخذ ينتقى فى ذهنه وسائل اللف والدوران التى يمـكن أن يسلـكها إلى غرضه دون أن تصدم الفتاة .

وتعجب فى نفسه من تلك اللهجة التى كانت تخاطبه بها الفتاة . . حقيقة أنه ضيف ، وأن الأدب والرقة واجبان

فى مثل هذه الحالات ، ولكن رقتها نحوه كانت — إلى حد ما — أكثر مما يستحق أو يتوقع .

ووجد الفتى نفسه — دون أن يدرى — يسترق النظر إلى ساقيها ، فإذا هما آية فى التناسق والجمال ، ثم ارتفع ببصره شيئاً فشيئاً وأخذ يفحص بقية الجسد . فراعه ذلك الانسجام والاستواء . وانتقل إلى الوجه فأحس بسحر يشع من عينيها وفتنة تفيض من شفتيها ! ! لقد كان صاحبه معذوراً فى جلوسه على الحجر أمام مكتب البريد ، ولو كان هو مكانه ، لما استطاع أن يحتفظ حتى الآن بقواه العقلية !

وبدأ الفتى يقص ما جاء من أجله . ولم يأخذ ذلك منه سوى لحظات قصيرة . وأدهشه أنه لم يبد على الفتاة ما كان يتوقعه من انزعاج وحزن ، ولم يزد ما قالته تعليقاً على قوله عن بضع كلمات تمنت لصاحبه فيها الشفاء .

ولم يجد بعد ذلك ما يقوله . فقام من مكانه مستأذناً فى الانصراف ، ولكن الفتاة نظرت إليه فى دهش ، وقالت :

— أبمثل هذه السرعة ؟

ثم أطرقت برأسها وأردفت بصوت خافت :

— أنا أعلم أن إجازتك لابد وأن تكون قصيرة ، وأن الساعات عندك ثمينة ، أثمن من أن تقضيها فى زيارة

بيوت الأصدقاء . ولكن كان يسعدنى أن تمكث عندنا بعض الوقت ، حتى نتناول الشاى على الأقل .

ولم يسع الفتى إلا أن يجلس ؛ ولم يسعه أيضاً — بالرغم منه — أن ينكر أن استبقاء الفتاة له قد أسعده . وأنه قد بات يسره أن يقضى معها مدة أطول ، وأخذ يرقبها ملياً ، وهى تتحدث عن الجو وعن الحديقة والزهور . وعن كل شىء إلا صاحبه . ووجد نفسه يجاذبها الحديث ، وكأن بينهما صحبة قديمة . فقد كان يحس فى نفسه بأنهما قد التقيا قبل ذلك مئات المرات . وكان يشعر أن الجو الذى شملهما هو ملىء بنشوة ممتعة شبيهة بتلك النشوة التى تسود جو العشاق .

وصمتت الفتاة فجأة . وحدقت فيه حيناً ، ثم هزت رأسها متسائلة :

— يخيل إلىّ أننى قد التقيت بك قبل الآن . لست أذكر متى ؟ أو أين ؟ ولكنى أكاد أجزم فى نفسى أنك لست غريباً عنى .

وضحك الفتى وتأملها هنيهة ثم أجاب :

— هذا ما أحس به نفسه ، وقد يكون اللقاء قد حدث فعلا ، ولكننا لم نلتق بأجسادنا ، بل التقينا بأرواحنا .

ورفعت إليه عينيها فالتقت بعينيه ، ومرت بينهما نظرة ،

تحمل فى جوفها أشياء كثيرة ، نظرة من تلك النظرات التى تمر بين الرجل والمرأة فتحمل إلى كل منهما ذلك الشىء الذى لا يستطيعان الإفصاح عنه . ذلك الشىء الذى يكمن فى القلوب ، ولا يمكن تبادله إلا عن طريق العيون .

وفجأة أحس الفتى بوخز فى جانبه ، لقد خيل إليه أن صاحبه يرقبه ، صاحبه الذى يرقد فى جوف الصحراء على بعد مئات الأميال ، والذى كلفه أن يحمل رسالته إلى خطيبته .

لقد أحس الفتى بأنه قد ارتكب فعلا نكراً وأمراً إداً ، فقد كان عليه أن يبلغ الرسالة ثم ينصرف مع سبيله ، ومع ذلك فقد ارتضى لنفسه أن يجلس قبالة الفتاة فيجاذبها الحديث ، ويبادلها نظرات الحب المختلسة ، ويخبرها أنهما قد التقيا بروحيهما ، — أزهق الله روحه وفرق جسده — حتى يكف عن خيانة الأصدقاء !

ترى ماذا يقول عنه صاحبه ، وسائر رفاقه ، لو أبصروه على هذه الحال ؟ هب أن الفتاة قد راعت معه أصول الضيافة ، وأفرطت بعض الشىء فى مجاملته لأنه صديق خطيبها ، أفكان يحق له أن يستغل رقتها ، فيتمادى فى الجلوس معها ليمتع بصره بوجهها الجميل وجسدها الناضج ؟ أفكان يحق له أن يجلس ليسوق إليها ألفاظ الحب ونظرات الغرام ؟ !

لا . لا . ليس هذا من شيم الرجال ، يجب عليه أن يتمالك نفسه ويثوب إلى رشده .

وفجأة نفض رأسه كما ينفض المرء رأسه عندما يصعد من جوف الماء ، ثم نهض واقفاً وقال فى حزم وإصرار :

ـ لابد أن أنصرف الآن ، لقد تذكرت أن لدّى أعمالا هامة .

وبدرت من الفتاة صيحة دهش وقالت فى أسف :

ـ أترانى قد أزعجتك بإصرارى على إبقائك ؟ إنى جد آسفة !

وساء الفتى نظرة الحزن التى بدت فى عينيها ولـكنه صمم على أن يكون حازماً . . وكسا وجهه قناعاً من الجد والصرامة . . ومد يده إليها مودعاً دون أن يحاول النظر إلى عينيها . ولـكنها أصرت على أن تودعه حتى الباب الخارجى .

وسار بجوارها . ورأى نفسه يتخلف قليلا فيتسنى له أن يرقب جسدها البديع وشعرها المسترسل على كتفيها . إنه لم يجد فى ذلك أى حرج . فما دام قد صد نفسه وكبح جماحها . أليس له الحق فى أن يتزود منها بنظرة أخيرة ، ولو للذكرى ؟!

ووقفت الفتاة تودعه عند الباب الخارجى وما زالت تبدو فى وجهها علامات الأسف لرحيله السريع . ولـكنه شد على

يدها وغادرها كأنه هارب من خطر داهم .

ولم يطق الفتى أن يمنع نفسه عن التفكير فى الفتاة . وأحس بها قد ملكت لبه وشغلت ذهنه . وتعذر عليه أن يطرد صورتها التى استبدت برأسه . ولم يسعه أن يتهم نفسه بالسخف والجنون . وأى جنون هنالك أكثر من أن يترك نفسه تنغمس فى التفكير فى فتاة ليست له ولا يمكن أن تكون له ؟ إن هذا التفكير فى خطيبة صاحبه يعتبر ضرباً من ضروب الخيانة . ولكن ما حيلته والأمر ليس بيده ! لقد ابتعد بنفسه عن الفتاة . وقد كان فى استطاعته أن يمتع بلقاء أطول . ولكنه كان أميناً على عهد صاحبه ، فولى الأدبار . أجل . لقد نجح فى الفرار منها . ولكنه الآن لا يستطيع الفرار من طيفها الذى ملك عليه نفسه .

ما أحمقه ! فيم هذا التعلق منه بالفتاة التى لم يرها إلا مرة واحدة والتى كان يعلم سلفاً أنها محرمة عليه وأن مجرد التطلع إليها ليس فيه شىء من الوفاء ؟ ولكنه مع كل ذلك استمر يفكر فيها . حتى لقد بات من كثرة تفكيره فيها زاهداً فى هاته الفتيات اللاتى كان يتحرق شوقاً إليهن ، واللاتى كان يستحث الوقت وهو فى طريقه إلى القاهرة لكى يتمتع بلقائهن .

وفى اليوم التالى وجد الفتى نفسه وقد أخذ يتلمس

الأسباب والأعذار لكى يزور الفتاة مرة أخرى . وبدأ النضال بينه وبين نفسه . يذهب أم لا يذهب ! لقد كان عقله يمنعه من الذهاب وضميره يحذره من أن يحيد عن جادة الصواب . وكان قلبه يتحرق شوقاً ، ويدفع به إلى بيت الفتاة دفعاً . ولكن وجد نفسه أخيراً وقد وقف أمام باب الدار يضغط على الجرس !

وكان يحس باضطراب شديد . حتى لقد حمد الله حينما خرج إليه الخادم فأنبأه أن أهل الدار قد خرجوا . وعاد أدراجه وهو لا يكاد يصدق كيف ساقه جنونه إلى أن يحاول العودة إلى الفتاة . وماذا تراه كان قائلا لها لو وجدها ؟

وأخيراً انتهت الأيام الخمسة . دون أن يحس الفتى بتلك المتع التى كان يتوقعها .

فقد أقض مضجعه طيف الفتاة . . وسلبه تفكيره اليائس فيها كل راحة ومتعة .

وفى اليوم السادس عاد إلى الواحات البحرية . وفى ذهنه شرود وغروب بال ، وتلقاه رفاقه مهللين ، وسألوه فى لهفة أن يقص عليهم ما حمل من أنباء وأقاصيص ، ولكنه لم يقص عليهم شيئاً . فقد كان به ميل إلى الصمت وزهد فى الكلام .

كان صاحبه قد أبل من مرضه . وأقبل عليه يسأله عن

خطيبته وكيف وجدها ، وماذا قالت له ، وكيف استقبلته . فأجابه فى اقتضاب أنها بخير وأن مرضه قد أحزنها ولكنه طمأنها قدر المستطاع .

ومرت الأيام فإذا بالفتى لا يسعده شىء كالجلوس إلى صاحبه ليسمع حديثه عن خطيبته ، فقد كان يحس بمتعة فى سماع تلك الأحاديث . حتى انتهى الأمر به إلى أن يعرف عنها كل شىء . وحتى بات يشعر بأنه يعرفها معرفة وثيقة . بل إنه ليعرفها كما يعرف أقرب الناس إليه ، أو كما يعرف نفسه . وفى ذات أصيل جلس الفتى يرقب قرص الشمس الأحمر يختفى ببطء خلف كثبان الرمال . ولم يكن هناك أحب إليه من ذلك المنظر . ولكنه فى تلك الساعة لم يحس بذلك الوقع الجميل الذى تعود أن يحس به . فقد حجبه عنه ستار كثيف من الحزن الذى شمل قلبه وغمر فؤاده . ولم يشعر إلا وهو يسائل نفسه : ترى أية هاوية سيؤدى إليها ذلك الطريق العجيب الذى يسير فيه ؟ وماذا يمكن أن تكون نهاية ذلك الحب اليائس الشبيه بحب الخيالات وعشق الأشباح . لقد بات أشد من صاحبه لهفة إلى رسائل البريد . لا لأنه ينتظر خطاباً لنفسه بل لأنه ينتظر خطاباً من خطيبة صاحبه لصاحبه .

لقد كانت فى نفسه لهفة إلى ذلك الخطاب. فقد توقع أن الفتاة ستذكره فيه على الأقل لتخبر صاحبها أنها قابلته. ولم يكن بالطبع قد بلغ به الجنون حداً يتوقع أن تسوق الفتاة إلى صاحبها كلمات الإعجاب به هو. ولكنه توقع أنها ربما عرضت له فيه بكلمة مدح أو بكلمتين. على أية حال. وحتى لو لم تذكره البتة. لقد كانت به لهفة إلى أن يقرأ منها ويستمع إليها حتى ولو كان كتابها وحديثها موجهاً إلى غيره.

وتلفت الفتى حوله فإذا بصاحبه يقبل عليه فجأة وقد تهلل وجهه بشراً. وكادت مشيته من فرط فرحته تكون رقصاً. وقد أمسك فى يده رسالة كأنها تصريح بالدخول إلى الجنة.

لقد كانت رسالة من خطيبته. ما فى ذلك ريب ولا شك؟!

وقفز الفتى من مكانه وعدا إلى صاحبه.

ونظر إليه صاحبه وقد تجسم الهناء فى قسماته، وبدرت منه ضحكة.. ثم مد يده بالرسالة إلى الفتى.

وأقبل الفتى على الرسالة يقرأها بشغف وشوق. وتمادت أساريره فى الانبساط، وبدا عليه من دلائل السعادة أكثر كثيراً مما كان يبدو على صاحبه. ولم يكد ينتهى من قراءتها حتى اندفع إلى صاحبه يحتضنه ويقبله كأن به مساً من جنون. وكان الفتى معذوراً. فقد وجد فى الرسالة أكثر مما كان يتوقع! لم توجه إليه الفتاة طبعاً كلمات حب، حتى ولا إعجاب.

بل لم تذكر عنه شيئاً البتة . ومع ذلك فقد وجد الفتى فى الرسالة أكثر مما كان يحلم به ! ! أجل لقد كان فيه شيء عجيب!!

إن الفتاة لم تذكر عنه شيئاً . لا لشيء إلا لأنها لم تره . أجل . لقد قالت الفتاة إنها كانت خارج الدار ، وأن التى قابلته هى أختها الصغرى ! !

وكان هذا أكثر مما ينتظره الفتى . فقد أحس بأن سحب اليأس قد تبددت من حوله . وأنه كان على شفا حفرة من الموت فأنقذ منها .

وبات الفتى ليله ساهراً . فقد كانت سعادته أكثر مما يحتمل . وفى الصباح هدد الفتى من حوله ، أنه إن لم يسمحوا له بالذهاب إلى القاهرة فوراً لكى يخطب الفتاة . فإنه سيذهب سيراً على الأقدام .

وعلم من حوله أن جنون الحب قد أصابه ، وأنه قد يفعلها . . فسمحوا له بالذهاب .

وعاد الفتى بعد أن خطب الفتاة . وفى ذات صباح ، بعد أسبوع من عودته . كان موظف البريد يفتح مكتبه فإذا به يبصر الفتى وقد حمل حجراً آخر وضعه أمام المكتب بجوار حجر صاحبه . فعلم أن « مجانين البوستة » أو « مجانين الهوى » قد زادوا واحداً .

أمـــل..

آه من هذه الظلمة التى شملتنى ! وآه من هذه الوحدة المضنية .. لِمَ لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟.. فقد تعلمت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطى دروساً فى الحياة .

obeikandi.com

الى قارئى

فى كركوك ، القارىء الذى طلب إلىّ أن أكتب إليه قصة بعنوان « أمل . . » أهدى هذه القصة . لأننى لا أستطيع أن أرد لواحد من أهل العراق طلباً ، فإنهم جميعاً أعزاء على نفسى ، أحباء إلى قلبى .

كان أول ما فضضته من الرسائل التى حملها إلىّ البريد فى الصباح رسالة مليئة مكتظة وجدت بها خطاباً طويلا قد شغل ما يقرب من الخمس صفحات « فولسكاب » ، وأسرعت بقراءة الإمضاء ، فوجدت المرسل صديقة لى لم تتعود قط أن تراسلنى ، إذ ليس بيننا سوى صداقة عابرة لا تستدعى أن يكتب أحدنا إلى الآخر .

ونظرت إلى صاحبى الذى جلس على مقعد أمام مكتبى وقذفت إليه بمجلة ليتسلى بقراءتها حتى أنتهى من قراءة الرسالة ، أو « العرضحالة » .

ثم بدأت القراءة :

عزيزى :

لا أدرى ما الذى دفعنى إلى الكتابة إليك ، أنت بالذات دون سواك ! بل لا أدرى ما الذى دفعنى إلى الكتابة أصلا . . ؟ وأنا التى لا أكره شيئاً مثل كتابة الرسائل ،

ولا أستطيع أن أخط سطرين متتاليين إلا بعد مشقة وعناء.

ولكنى أحس الآن كأن نفسى قد شملتها ظلمة حالكة، فأحاول — بالكتابة إليك — أن أتلمس فى تلك الظلمة من يؤنس وحدتى، ويخفف عنى وطأة هذه الوحشة المضنية، أجل، إنى أحس فى الفؤاد جمرة متأججة، لو طويت صدرى عليها وحبستها فى أضلعى، لتركتنى رماداً أو هشيما.

هذا ما جعلنى أمسك بالقلم وأحاول الكتابة، أما لماذا اخترتك أنت، فلأننى فى حاجة إلى من يستطيع فهمى، وإلى من يستطيع فهم تلك العوامل النفسانية التى تصطخب فى نفسى، وإلى من يكون لديه الصبر الذى يمكنه من قراءة رسالتى حتى النهاية، فلا يصيبه الملل بعد قراءة أسطر منها فيلقى بها فى ضيق وتبرم، ولا يكون نصيبى منه إلا بضع كلمات ساخرة فاترة.

أنا أعلم أنك لا تملك شيئاً لى، فلا عزاء لى عندك سوى الكلمات، ومتى كانت الكلمات تجدينا؟! إننى كنت حمقاء. فتركت الفرصة تفلت من يدى، أو على الأصح ركلتها بقدمى ولا أظنها ستعود بعد، فأسوأ ما فى الحياة أن الحوادث فيها لا تتكرر مرتين دائماً، فيتعظ الإنسان فى المرة الثانية بما ارتكب فى المرة الأولى، فإن الفرصة لا تكاد تمر بنا وتفلت من أيدينا حتى يصيبنا الفزع ونصيح بها أن تعود، لأنها

تعلمنا كيف نقتنصها ، وكيف لا نجعلها تفلت مرة أخرى ، ولكن هيهات ، إنها لا تعود .

أنت لا شك تعرف الدكتور (. . .) بل إنى لأذكر أنك كنت أول من عرفنى به ، عندما التقينا فى الصيف الماضى فى سيدى بشر ، وأنبأتنى ضاحكا بأنه طبيب أسنان و « نصاب » ! وطلبت إلىّ ألا أفكر أبداً فى الالتجاء إليه إذا ما أصبت « بوجع الضرس » ، لأنه سيشفينى من « وجع الضرس » ويضنينى « بوجع القلب » !

ولست أدرى ما الذى يجعلنى أذكر قولك الآن ، وتحذيرك إياى على ما كان به من هزل ومجون ، وبالرغم من أنه لم يعلق بذهنى وقتذاك إلا كما تعلق نكتة عابرة تافهة ، أجل ، إنه — على الرغم من هذا كله — يخيل إلىّ أن الأيام قد حققت نبوءاتك ، فأصبت منها بلوعة فى الفؤاد وحسرة فى القلب .

لقد بدأ الأمر بيننا بأن أصبت أنا فعلا « بوجع الضرس » ، ولم أكن أفكر قط فى الذهاب إليه ، لا لشىء إلا لأننى قد نسيته ، ولكن المصادفة وحدها هى التى ساقتنى إليه ، فقد قرأت اسمه ذات مرة على لافتة فى إحدى الدور ، ولم أر ما يمنع من الدخول ، فقد كان هو وغيره لدى سواء .

وعندما رآنى عرفنى للوهلة الأولى وأقبل علىّ باسماً مرحباً ، كأن بيننا قديم ود وسابق تعارف ، وتكررت بعد ذلك زيارتى له ، وبدأت أحس نحوه بالثقة والاطمئنان ، فقد أعجبتنى فيه براءة مظهره ولطف معشره .

وذات يوم أنبأنى أن معه تذكرتين للأوبرا وأنه تسعده مرافقتى إياه ، وصمت هنيهة قبل أن أجيبه ، لقد كان الذهاب يسرنى ، ولكنى لم أتعوّد قط أنى أخرج فى صحبة رجل غريب منذ وفاة زوجى ، أى ما يقرب من ثلاثة أعوام ، ووجدت هاتفاً فى نفسى يكاد يقول نعم ، ولكنى وجدت فى القبول نوعاً من الخيانة ، خيانة عهد قديم ، وحب ما زالت جذوره مغروسة فى قلبى بالرغم من أن أوراقه قد جفت وتساقطت .

وأجبته بهدوء أنه لا يمكننى مرافقته إلى أى مكان ، هو أو سواه من الرجال ، وبدا فى وجهه شىء من الخذلان وخيبة الأمل . ولكنه سرعان ما عاد إلى سابق فكاهته وإلى أحاديثه المرحة الضاحكة .

وفى تلك الليلة أصابنى أرق شديد ، فقد تيقظت فى نفسى ذكريات هاجعة راقدة ، وعصف بى الحنين والشوق إلى حبيب راحل نأى به الموت وأبعدته الأيام ، ووجدت القلب يناديه ويستعيد لياليه .

لقد ذكرت زوجى العزيز الذى كان يفيض بالأمل والحياة ، وذكرت أمانيه الحلوة التى ذرتها ريح الزمن وتركها الموت هباء فى هباء .

تذكرت كيف احتوانى بين ذراعيه القويتين ليلة الزواج ، وكيف سمعت همساته فى أذنى كأنها تغريد وترنيم ، « أنت زوجتى ، وسأحبك حتى آخر العمر » ، آخر العمر ! ؟ . لقد كان يبدو حينذاك بعيداً نائياً ، لا تكاد تبصره العين أو تحس به النفس ، ولكنه مع ذلك كان قريباً منا ، أقرب مما نتصور ، فما مرت ثلاث سنين ، حتى أبصرناه على قيد خطوات ، أو قيد لحظات ، وأخيراً انتهى الأمر ، وأحسست بأن موته — وأنا فى السادسة والعشرين — كان بمثابة موت لى ، وكان لنا معاً « آخر العمر ! . . »

* * *

ومرت الأيام وأنا لا أجد فى الحياة من يستحق البقاء ، اللهم إلا تلك الذكريات الحلوة الهاجعة فى النفس ، والتى لولاها لكنت والموتى سواء ، واستطاعت الأيام بعد ذلك أن تبرىء جراح القلب وتخفف من لوعته وأساه ، ولكنها لم تستطع أن تقتلع جذور الحب المتفرعة فيه ، ولم تستطع أن تمحو الحنين الهادىء الصامت الذى كان يجيش به .

ووجدتنى أستمرىء الوحدة ، وأستطيب العزلة ، وحدة القلب وعزلته ، وإن كان من التجنى أن أصف ما كنت فيه بالوحدة والعزلة ، إذ ماغادرنى طيفه لحظة واحدة ، وما كنت وحيدة بعد موته أبداً .

ولكن ما الذى أثار كوامن شجنى فى تلك الليلة ؟! وما الذى جعلنى آرق لا يغمض لى جفن ؟! أفعل بى ذلك مجرد دعوة وجهت إلىّ فأشعرتنى أننى وحيدة ؟ أم بدأت نفسى الساكنة تتمرد وتثور ؟

ومرت بضعة أيام بعد ذلك ، ثم ذهبت لزيارة الطبيب فأقبل علىّ فى لهفة وشوق ، وألحّ فى هذه المرة أن أقبل دعوته إلى السينما ، وأنبأنى أنه لا يستطيع أن يفهم سبباً لرفضى ، إلا إذا كنت أرفض صداقته ، وأرفض الثقة به .

ولست أدرى حينذاك هل أصابنى ضعف أمامه فقبلت دعوته ، أم أننى قبلت دعوته لأنى أقنعت نفسى بأن المسألة أتفه من أن أتهم نفسى بالضعف لقبولها ؟ وأن إخلاصى لزوجى الراحل لا يمكن أن يتأثر بأمثال تلك العلاقات البسيطة التافهة .. على أية حال ، وسواء أكان هذا السبب أو ذاك فقد قبلت الدعوة .

وصحبته إلى الدار بعد انتهاء السينما ، وجلست بجواره

فى العربة جنباً إلى جنب ، وخيل إلىّ أنى أحس بالكثير من السعادة ، وبالكثير من الرضا . . السعادة والرضا المشوبين بشىء من الخجل ، وبشىء من الندم وتأنيب الضمير .

وفى هذه الليلة لم أذق النوم إلا لماما ، ولم يضايقنى ذلك ، فقد كنت أحس بيقظة ممتعة ، وعند ما كانت عيناى تغفلان كنت أرى أحلاماً لذيذة ألتقى فيها بزوجى ، كما كنا نلتقى فى سابق عهدنا ، ولكنى كنت أرى فى بعض الأحيان أن وجه زوجى قد أخذ يتبدل شيئاً فشيئاً حتى يصير شديد الشبه بوجه صاحبى الجديد .

واستيقظت فى الصباح وقد عقدت النية على ألا أذهب لزيارته مرة أخرى .

لقد كان من الحمق أن أترك نفسى تندفع فى طريق مغلق . إننى صممت على ألا أتزوج مرة أخرى ، فمن العبث أن أحاول إنشاء علاقة معه لا معنى لها ، ولا يعلم إلا الله مداها ، ومن العبث أيضاً أن أحاول إخداع نفسى لأتركها عن بعد تتلمس المعاذير التى أنا أعلم الناس ببطلانها .

وخيل إلىّ أننى استطعت أن أضع حداً للمسألة . ولكن لم تكد تمضى بضعة أيام حتى التقينا مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة كان هو الذى أقبل علىّ فى البيت ، وقد كست

وجهه سيماء الخطورة ، وحمل حقيبته فى يده ، مدعياً أنه خشى أن يكون قد ألم بى ما منعنى من الحضور ، وهو يعلم أن أى تهاون فى مسألة الضرس قد يؤدى بى إلى التهلكة ، وكنت أعلم جيداً أن كلامه لا يعدو أن يكون كذباً فى كذب لأن ضرسى لم يعد به أى شىء .

وقبل أن ينصرف أنبأنى بأن هناك رواية « هايله » فى الأوبرا ، وأن مشاهدتها مفيدة جداً « لوجع الضرس » .

وذهبت معه إلى الأوبرا فى ذلك المساء ، وبعد انتهاء الرواية جلست إلى جواره فى عربته ليوصلنى إلى البيت .

وفى الطريق توقف على شاطىء النيل هنيهة وأخذنا نتحدث ، وليس هناك شك فى أنه محدث بارع ، فقد استطاع أن ينسينى بسرعة رغبتى فى العودة ، وشيئاً فشيئاً زاد اقترابه منى ، ثم أمسك بيدى ، وبدأ حديثه يتحول إلى همسات .

وهنا خيل لى أنى لن أستطيع أن أصف بالضبط تلك المرحلة الدقيقة التى مررت بها وقتذاك ، مرحلة الصراع النفسانى العنيف ، والتأرجح بين الماضى والحاضر ، وبين الذكريات والحقائق .. أجل . يخيل إلىّ أنى لن أستطيع أن أجعلك تفهمنى لأنى أنا نفسى لم أكن أفهم نفسى .

أترانى حقاً أحب ذلك الذى أجلس إلى جواره وأدع

يدى فى يده ؟ ترى أن الشجاعة فقط هى التى تنقصنى لتكون متعتى بحبه كاملة غير منقوصة ؟ أترى لو استطعت أن أسدل

الستار بينى وبين الماضى ، هل يذهب من نفسى ذلك الشعور بالقلق ؟ .

أم . . أم ترى العكس هو الصحيح ؟ ! وأنى لو أسدلت على الماضى ستاراً لما أحسست قط بمتعة أو غبطة ، لأن ذلك الشخص الذى أسمع همساته الآن ليس إلا مرآة تنعكس فيها صورة زوجى العزيز الذى أحببته بكل ما تملك المرأة أن تحب ، وأن تلك النشوة التى أحس بها الآن هى ملكى أنا ،

هى كائنة فى نفسى ، وكامنة فى قلبى ، وأن كل ما فعله ذلك ذلك الشخص الجديد هو أنه حركها ، فجاش بها القلب ، واصطخب الفؤاد .

وأحسست به يرفع يدى فيضعها على فمه ، ثم يسألنى أن أكون زوجته .

وأحسست برجفة تسرى فى بدنى . . أنا ! . أنا أتزوج مرة أخرى ؟ ! أهذا هو الوفاء لزوجى الحبيب الراحل ؟ ! أيمكن أن أستبدل بحبه حباً آخر ؟ !

ونظرت إليه ونزعت يدى من يده ، كأننى أتراجع من على حافة هاوية ، ثم هززت رأسى ببطء ، وأجبته هامسة : « إننى قد أحببت مرة واحدة ، ووهبت قلبى ، فلا أستطيع أن أهبه مرة أخرى . أجل ، لن أتزوج حتى آخر العمر ، إنى أحس بعزاء فى وحدتى » .

وأجابنى فى رقة وعطف : « إن من الجنون أن أفنى زهرة عمرى فى هذه الوحدة المضنية ، وأن القلب قد يحب مرة ، ولكنه يستطيع أن يحب مرة أخرى ، وأنه قد يذبل فترة ثم يعود إلى الازدهار ، فحرام أن أقتل قلبى بيدى ، وأترك العمر يذهب سدى » .

وقلت له فى نبرات حالمة وكأنى أحدث نفسى :

— إن القلب لا يموت ما دام الإخلاص يغذيه ، وماذا يضيرنى أن يذهب العمر سدى ، ما دمت موقنة أنه فى يوم ما عندما ينتهى العمر ، سألتقى بزوجى مرة أخرى ، وأضع يدى فى يده .. إنى أحب الوحدة لأنها لن تنسينى إياه .

ولم أسمعه ينبس ببنت شفة بعد ذلك ، فقد غمرته موجة من الحزن والخيبة ، فأدار العربة وأعادنى إلى البيت فى سكون وإطراق .

ولا أدرى ما الذى أصابنى مجرد أن افترقنا ، ولا أستطيع أن أفهم قط سر ذلك التبدل الذى داخل نفسى ، لقد جلست فى حجرتى وقد فاض بنفسى الحزن ، وتملكتنى لوعة شديدة ، فقد أحسست من حولى بفراغ ووحشة ، وخيل لى أنى فقدت شيئاً عزيزاً ، وتذكرت قول الرجل : « إن القلب قد يذبل فترة ثم يعود إلى الازدهار » . أجل ، إن قلبى قد بدأ يزدهر مرة أخرى ، لقد كنت أحب الرجل ، لا شك فى ذلك .

ولم أحس وقتئذ بغضاضة عند ما اعترفت لنفسى بأنى أحب مرة أخرى ، ولم أجد فى ذلك أى نوع من أنواع الخيانة ، فما كان حبى لزوجى الراحل ليحول دون حبى الجديد . وما كانت الذكريات الجميلة المقدسة فى نفسى لتحرمنى متعة من متع الحياة التى يتمتع بها كل كائن حى . أجل ، إن للموتى حباً ، وللأحياء حباً آخر .

وهكذا انقلب ذلك الشعور بالقلق الذى كنت أحسه بجواره ، إلى شعور بالحزن عندما فارقته ، وعندما بت أخشى أن أكون قد فقدته إلى الأبد .

ولكن لا ، إنى قطعاً لم أفقده ، فلا شك فى أنه سيعود ، ولا شك فى أنه سيطلب الزواج منى مرة أخرى ، وحينئذ سيجد منى مخلوقة أخرى ، وسأزيل من نفسه مرارة الخيبة التى سببتها له فى المرة الأولى .

ولكن الأيام مضت ، وهو لا يعود ، حتى بت أحس بقلق شديد ، وحتى أقنعت نفسى فى النهاية بأنه من الخير لى أن أذهب أنا لأزيل من نفسه ذلك اليأس الذى سببته له ولأهيء له فرصة أخرى .

وذهبت إليه فعلا ، بحجة أن « ضرسى » قد عاد يؤلمنى .

والتقينا مرة ثانية ، وليتنا ما التقينا ، فقد وجدته شخصاً آخر ، لقد أقبل علىّ فى برود وجمود ، كأن لم يكن بيننا شيء ، وظننته يحاول معاقبتى ، فقلت لنفسى : لا بأس ، فإنى أستحق العقاب . ولكنه استمر ممعناً فى فتوره العجيب حتى لم أجد بداً من أن أحاول أنا من جانبى أن أقول شيئاً أجدد به أمله فى أننى قد تغيرت ، وبدأت فعلا أتحدث عن مقابلتنا الأخيرة ، ولكنى رأيته يرفع إلىّ رأسه ويقول فى صوت خافت :

ـ إنى أشكر لك ذلك الدرس الذى علمتنيه ، لقد أريتنى مثلا فى الإخلاص ، وكنت فى حاجة إلى ذلك ، فقد أعدت إلى رأسى ذكرى صاحبتى الأولى التى ظننت أن القلب يمكن أن يستعيض بك عنها ، وأنه يمكننى أن أغذيه بك بدلا من أن أتركه يذوى ويموت ، ولكنك قلت إن القلب الذى يغذيه الإخلاص لا يمكن أن يموت ، وأن عزاءك فى الحياة هو أنه سيأتى يوم تلتقين فيه بصاحبك مرة أخرى ، فقلت لنفسى لِمَ لا يكون عزائى أنا الآخر هو أننى سألتقى بصاحبتى مرة ثانية ؟ أجل ، لقد أضحت الوحدة خيراً لى كما هى خيراً لك .

وأحسست ببرودة تسرى فى دمى ، وبقلبى يهوى بين ضلوعى ، إذاً فقد كان يحاول أن يتعزى بى عن صاحبته ! ! لقد كانت خيبة الأمل شديدة على نفسى !

وتمالكت ، وحاولت أن أدع ابتسامة ترتسم على شفتى ، ثم ودعته وافترقنا . لقد كان الخطأ خطئى ، أنا التى دفعت إلى رأسه ذكرى صاحبته ، لقد أعطيته درساً ما كان أقساه على نفسى .

آه من هذه الظلمة التى شملتنى بعد ذلك ، وآه من هذه الوحدة المضنية ، لِمَ لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ لِمَ لا تتيح لنا الفرصة مرة أخرى ؟ فقد تعلمت

الآن كيف لا أدعها تفلت .. لقد عرفت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطى دروساً فى الحياة .

أترى الفرصة تعود ؟ لا أظن . ولكنى مع ذلك أعلل النفس بالأمل ، وإلا لما استطعت البقاء فى قيد الحياة لحظة ، « ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل » .

* * *

وأطبقت الرسالة ونظرت إلى صاحبى بدهش شديد ، فقد كان هو نفسه الدكتور (. . .) بطل هذه الرسالة . وصحت به متسائلا :

ـ ولكنى لم أسمع قط أن لك صاحبة قد توفيت .

ونظر هو إلىّ بدهش أشد ، بعد أن ألقى المجلة من يده ، وهز رأسه مستوضحاً ، ثم سألنى :

ـ صاحبة توفيت ؟ ! ! لى أنا ؟ ! !

ودفعت إليه بالخطاب ، فأقبل على قراءته بلهفة شديدة ، ولم يكد ينتهى منه حتى رأيته قد عصفت به نوبة شديدة من الضحك . . ثم قال لى وهو يقفز من مكانه :

ـ لقد « انطلت » عليها . . لم يكن هناك بد من هذه الكذبة ، حتى أرد لها ذلك الدرس الذى حاولت أن تعطينى إياه ، وحتى أخرجها من تلك الوحدة التى كانت تحاول أن

تطوى فيها نفسها. لقد كانت كذبتى خير علاج لها، « وداوى بالتى كانت هى الداء ». لقد كنت أعرف أنها تحبنى، ولكن لم تكن لديها الشجاعة الكافية لأن تعترف بالحقائق وأن تسدل على الماضى ستاراً، فلم أجد خيراً من أن أدعى أن لى أنا الآخر صاحبة راحلة، وذكريات عزيزة، فعصفت بنفسها الغيرة من الصاحبة ومن الذكريات، وعرفت أن القلب يمكن أن يحب مرة، وثانية، وثالثة، بل إنه لا يكف عن الحب حتى يكف عن نبضه.

ورأيت صاحبى يعدو خارج الحجرة مسرعاً، فسألته إلى أين؟ فأجاب:

ـ أعيد لها الحوادث. وأعطيها الفرصة مرة أخرى، وأحقق لى ولها « أملا » يجيش فى نفسينا.

خاتمة قصة

يالله زل ويالله سخرية ؛ يالله إنسان الأحمق المغرور . . أهذا هو الطبيب النفسانى الذى يعالج أمور الحب ؟ ! لقد أزمن به الداء واستفحلت العلة . . لقد سخر منه المريض وتركه يهذى كالمحموم . . لقد نجا المريض ، وسقط الطبيب .

obeikan.com

وصديقاً لى — هو صاحب إحدى دور الطباعة والنشر الشهيرة — نتجاذب أطراف الحديث ذات مساء، وكان الحديث يدور حول مشهورى الكتّاب وأخلاقهم وطبائعهم. وكان صاحبى طلى الحديث ماهراً فى فن الكلام، وهو على صلة شديدة — بحكم مهنته — بكل أولئك المؤلفين والكتّاب، فما أظن هناك أحداً منهم إلا وقام له بنشر شىء من مؤلفاته، وكنت من جانبى أطرب لسماع أخبار هؤلاء القوم، وما أظن هناك امرءاً إلا ويلذ له أن يسمع عن هؤلاء الذين يقرأ لهم، وأن يعرف جانباً من حياتهم الخاصة، وأحاديثهم العامة، ونوادرهم وعاداتهم، وأن يقارن — فيما بينه وبين نفسه — بين مظهرهم على الورق ومظهرهم فى الحياة، وأن يعرف مدى ما فى عصارة ذهنهم من الواقع والحقيقة.

جلست

وجرنا الحديث إلى ذكر القصص والقصصيين، فرأيت صاحبى يهز رأسه ببطء قائلا:

— يخيل إلىّ أنه ليس أسهل من مهمة هؤلاء، فإنى لا أرى فيهم أكثر من ناقلين، يسطرون فى كتبهم أقاصيص

من حياتهم ، إنى أعرف الكثير منهم معرفة وثيقة ، وأعرف أن أبدع ما كتبوه من قصص ، هى تلك التى قطعوها من واقعهم ، فشذبوها وهذبوها ونحتوها وصاغوها ، ثم قدموها إلينا جميلة الصنع ، بديعة التكوين ، فأقبلنا عليها نلتهمها بشغف ولهفة ، لأننا رأينا فيها قطعة من حياتنا نحن ، فما أشبه الإنسان بالإنسان ، « وما لذ الآدمى كالآدمى » ، إنى أعرف أحدهم ، هو « فلان » (وذكر لى اسم أحد مشهورى كتّاب القصة) ، لا شك فى أنك قد قرأت له شيئاً ؟

ــ لقد قرأت له كل ما كتب ، أكثر من مرة .

ولم يكن فى قولى شىء من المبالغة ، إذ كان ذلك الكاتب الذى ذكر اسمه من أحب الكتّاب إلى نفسى ، وأشدهم سيطرة على مشاعرى ، وكان شغفى بالقراءة له منقطع النظير ، إذ كنت أرى فيما أقرأ له صورة من نفسى ، بل لقد كان يخيل إلىّ أحياناً أننى أنا الذى قد كتبت ما أقرأ له ، ولذا أطربنى أن أسمع من صاحبى شيئاً عنه ، وقلت أستحثه على فى الاستمرار الحديث :

ــ ما شأنه ؟ !

ــ هذا الكاتب مثل لذلك النوع الناقل ، فما كتب شيئاً إلا وله فى واقعه أصل ، وإنى لأعرف أصول الكثير من

القصص التى نشرتها له ، والتى كانت أكثرها رواجاً بين الجماهير . كان فى إخراجها أشبه برسام لا يستطيع الرسم إلا ونموذج أمامه ينقل عنه ، وإنى أستطيع أن أذكر لك نماذجه الحية التى سطَّر عنها قصصه . . أستطيع أن أسميها لك بأسمائها الخاصة ، وأن أريك إياها رأى العين . هذه الشخصيات التى كانت دعائم شاد عليها كل ما كتب ، موجودة بالفعل ، هى حقيقة ملموسة ، وليست من بنات الأفكار ، وليس أدل على هذا من أنه يصاب بجدب فى الكتابة وقحط ، وأن إنتاجه يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى ينعدم ، فى اللحظات التى ينضب فيها معين حياته من تلك النماذج التى ينقل عنها ، والتى تكون عنده ملهمات وموحيات تدفعه إلى الكتابة دفعاً . أجل إن حياته لا تكاد تخلو من هاته الملهمات حتى يكف عن الكتابة ، وتذهب عنه تلك العبقرية ويتلبد ذهنه ويصيبه ركود وجمود ، وتصبح قدرته فى التأليف لا تزيد على قدرتى وقدرتك .

وإنى لأذكره ذات مرة خلت وهو فى فترة من تلك الفترات ، أعنى فترات الجفاف والجدب من كل ملهمة فاتنة ساحرة ، توحى إليه بالكتابة وتدير عجلة ذهنه ، وقد طال به الخمود والخمول ، ومضت عليه مدة من الزمن لا يكتب

ولا ينتج ، حتى بدا لى أشبه بآلة معطلة أو قاطرة بلا وقود وقفت مكانها لا تدور ولا تتحرك .

لقد ساءنى منه ذلك الكسل وتلك البلادة و « التبلة » ، فقد كان فى ذلك خسارة مباشرة علىّ ، إذ كانت كتبه من أكثر الكتب التى أنشرها رواجاً ، وكان لى منها مورد رزق متدفق فياض .

ومرت الأيام وأنا أستحثه بينما هو لا يزداد إلا فتوراً ، ولا ينفع معه لوم أو تأنيب ، ولا يجدى إغراء أو ترغيب ، حتى صادف عندى ذات مرة فتاة صديقة تعوّدت زيارتى لأنتقى لها بعض الكتب . وقدمت كلا منهما إلى الآخر ، وبدا لى أن كليهما قد صادف هوى فى نفس صاحبه ، وأنهما قد وقعا عند بعضهما أحسن موقع .

لقد أقبلت الفتاة عليه فى لهفة وشوق ، فقد كانت من عشاق كتابته ، ولم تكن رأته قبل اليوم ، فلم تحاول أن تخفى تلك الفرحة التى بدت عليها ، عندما رأت الفرصة قد سنحت بلقائه .

أما من جانبه هو ، فقد أدركت من نظرته الأولى لها أنها من النوع الذى يميل إليه والذى يستطيع أن يترك فى نفسه أثراً ، إذ كنت خبيراً به وبنظراته ، ورأيته يقبل عليها فى لهفة

وقد علا وجهه كثير من البشر والسرور ، وهو شيء لا أظنه كان يستطيع إظهاره لو لم تعجبه الفتاة ، إذ لم يكن قط يجيد التمثيل . ولا أنكر القول أن الفتاة كانت تستحق منه ذلك الإقبال ، إذ كانت مرحة ، خفيفة الظل ، على قدر كبير من الفتنة والجاذبية .

وكان الانسجام بينهما سريعاً ، ورأيتهما قد انهمكا فى الحديث كأن بينهما قديم صحبة ، بل لقد أحسست بأنى قد أضحيت بينهما غريباً ، وأقول الحق إن ما حدث بينهما من تآلف قد سرنى ، فقد تمنيت أن تصبح الفتاة فى نفسه « ذات موضوع » ، وأن تملأ عنده ذلك المعين الذى نضب ، وأن تزيل ذلك الجدب والجفاف اللذين حلا به ، فتخرجه من جموده وركوده ، وتكون له موحية ملهمة ، أو تكون له : وقود القاطرة .

وأخيراً افترقا ، ولم أدر وقتذاك هل افترقا إلى موعد أم إلى غير لقاء ؟ ومرت بضعة أيام لم أره فيها . ولم أستطع معرفة ما كان بينه وبين الفتاة ، أنشأت بينهما صحبة ، أم غرام ؟ . أم أن لقاءهما عندى لم يزد عن لقاء عابر ، نسى كل منهما بعده صاحبه ؟

* * *

وأخيراً لقيت الفتاة ، فسألتها خلال الحديث مستطرداً كأنني لا أقصد السؤال عما إذا كانت قد رأته مرة ثانية ؟ فأجابت بالنفي .. فتملكني منه يأس ، وزال الأمل في أن يعاود الكتابة .

وطالت غيبته عني أكثر مما تعودت حتى قلقت فذهبت لزيارته . ودخلت عليه فإذا به قد قبع في إحدى الأرائك وانهمك في الكتابة !

ولم يكد يراني حتى ألقى القلم وقام ضاحكا مرحباً ، وأشار بأصابعه إشارة : « أمعك نقود ؟ » فضحكت وأجبته بصوت يفيض غبطة :

ـ أَنَزَلَ الوحي ؟

ـ كالسيل ، عندي من الوحي ما يكفي لعشر قصص ، أريد ثمنها مقدماً .

ـ سأعطي النقود لصاحبة الوحي التي أرغمتك على الكتابة ، لأنك لا تستحق شيئاً منها ، فأنت بدونها لا شيء . ترى من تكون الملهمة هذه المرة ؟

ولم يجب ، بل مد يده إليّ برزمة الأوراق التي كان يكتب فيها ، وأمسكت بالأوراق أقلبها بين يدي صفحة بعد أخرى . فوجدته قد كتب مقداراً لا بأس بها ، ومررت ببصري على

الصفحة الأولى أتصفح ما بها سريعاً عابراً ، ولكنى وجدتنى أتمهل بالرغم منى ، وأقرأ جيداً ، ثم انطلقت منى ضحكة عالية .

يا للفتاة الماكرة ! ! إنها هى ، هى بعينها ، هى الموحية الملهمة . إنها الوقود الذى حرك القاطرة ، يا للفتاة الخبيثة ! ! لقد ضحكت علىّ فأنبأتنى بأنها لم تقابله ، ومع ذلك فيبدو من كتابته أنها قد قابلته ، وقابلته ، بل أغلب الظن أنهما قد دخلا أيضاً فى دور غرامى عنيف ، إنها هى بعينها ، فلقد أجاد وصفها كل الإجادة بحيث لا يمكن أن أخطئها ، تماماً كأنى أبصر صورتها أمام ناظرى ، وأمسكت بالصفحة أمعن فيها البصر فقرأت ما يلى :

« ووقف ينتظرها وبه كثير من قلق ، قلق يذكره بزمن خلا وأيام مضت ، عندما كان لا يزال حديث عهد بالحب ، أتراه مقبلا على حب جديد ؟ ! لا ، لا ، إن المسألة لا تعدو لهواً وتسلية ، وهو لا شك سينبئها بذلك ، وسيتفق وإياها على ألا تكون علاقتهما أكثر من تبادل سرور » ، كلاهما يهيء للآخر ما يستطيع من سرور وابتهاج ، ولا شيء أعمق من ذلك ، أجل لا داعى للإحساسات العميقة والمشاعر الجارفة ، إنه لا يريد حباً ، لأنه أدرى الناس بما يعقب متعة الحب ونشوته ، من رد فعل مضاد ، هو أزهد الناس فيه .

ولكنه بالرغم من كل ذلك ، كان يحس من قلقه ببوادر حب ، أشبه بتلك البوادر التى يحس بها المحموم قبل أن يصاب بالحمى . وأقبلت أخيراً فلم يستطع أن يمنع هزة الفرح التى عرته ، ولا النشوة التى سرت فى رأسه .

أقبلت عليه . فأخذ يتاملها فى تمعن ، ويفحصها جيداً ، كأنه يريد أن يحفظ صورتها عن ظهر قلب حتى يرسمها من الذاكرة .

أقبلت عليه ، وقد بدا جسدها على شىء من النحافة ، ولكن وجهها كانت تنبعث منه فتنة تجعل البصر يتركز فيه فلا يعبأ بغيره ، وكان يفيض من قسماتها سحر يغمرها كلها ، فتبدو نحافتها رقة جميلة مستحبة .

كان وجهها دقيق التقاطيع حلو الملامح ، يحيط به ليل من الشعر الداكن السواد ، الشديد الغزارة .

وبدا وجهها فى ظلمات شعرها ، وقد سرى منه ضوء هادىء جميل ، شبيه بضوء القمر يحس منه المرء بارتياح وسكينة ، لولا عيناها ، فقد كانتا أخطر ما فى وجهها ، لقد كانت تفيض منهما أشعة نفاذة ، لا تستطيع تلك الأهداب الطويلة أن تخفف حدتها ، وكانتا شديدتى السواد ، شديدتى الصفاء .

أما شفتاها فقد كانتا ينبوع إغراء .

أقبلت عليه ، وشدت على يده فى حرارة وشوق ، ودلفا سوياً إلى مكان اللقاء ، وانتحيا منه ناحية مظلمة بعيدة عن الأعين والرقباء ، وكان أول ما فعل أن أمسك يدها ، فقد رآها فى أول لقاء . . دقيقة الصنع ، غضة بضة ، وتمنى إذ ذاك لو مسها بشفتيه مساً خفيفاً ، ولكن الحياء قد منعه وصده ، فلم يكد يلقاها ويبصر يدها حتى بدأ بتنفيذ ما دار بخلده فى المرة السابقة .

ورفع يدها إلى شفتيه وأخذ يمسها مساً خفيفاً ، ويمر بهما

على أصابعها الدقيقة الجميلة ، ثم أدار يدها ودفن شفتيه فى راحتها ، ثم نظر إليها ، فإذا بها قد شردت ببصرها فى الظلمة التى لفتهما .

لقد أنبأته فى المرة السابقة أنها تحب ، وأنها تقاسى من حبها ما لا تقدر على احتماله ، وتتمنى لو استطاعت أن تنسى من تحب ، وأن تبرأ من حبه ، فأنبأها هو بأن لديه الدواء ، وأنه يستطيع لو لقيها بضع مرات أن يهيء لها الشفاء ، فأجابته وعلى شفتيها ابتسامة خافتة : إنها تخشى أن يداويها (بالتى كانت هى الداء) وأن تكون فى ملاذها به كالمستجير من الرمضاء بالنار ، ولكنه أنبأها بألا تخشى شيئاً ، لأنه زاهد فى الحب ، راغب عنه .

ومع ذلك فإنه يحس فى هذا اللقاء — المفروض فيه أنه سيبدأ علاجه كى يشفيها من حب صاحبها — بأنه على وشك أن ينزلق هو فى حبها ، ولكنه طمأن نفسه بأن خير وسيلة لشفائها ، وأضمن طريق له ، هو أن يكون العلاج على مرحلتين ، أن يبرئها من حب صاحبها بحبه هو ، وبعد ذلك يسهل عليه أن يبرئها من حبه ، ولكى يجعلها تحبه لابد له من أن يحبها . . هكذا أخذ يطمئن نفسه بأن المسألة لا تعدو أن تكون مسألة علاج .

وبدأت الفتاة تحدثه عن صاحبها، وأخرجت من حقيبتها صورة له، دفعتها إليه فأخذ يتفحصها فى الضوء الباهت، ثم احتفظ بها فى يده هنيهة، وحينما طلبتها منه وجدت أنه كورها، كما يكور المرء ورقة مهملة على وشك أن يقذف بها إلى الأرض.

وبدا عليها شىء من الأسف والغضب، وارتبك هو لأنه قد أتلف الصورة على غير إرادة منه ودون أن يحس بما هو فاعل، وأنه كان يخشى أن يكون عقله الباطن قد أدرك أن هذا هو غريمه المقبل، فأطبقت يده على الصورة تحطمها دون أن يدرى.

وانتهيت من قراءة الصفحة، ثم أخذت أقلب الصفحات بين يدى بسرعة، وأخيراً أطبقت الورق واستغرقت فى الضحك، ورأيته ينظر إلىّ نظرته إلى أبله يضحك بلا مبرر، ثم سألنى:

— م تضحك؟

— لا شىء، لم أكن أعرف من قبل أنك طبيب نفسانى إخصائى فى أمراض الحب.

— لا أريد تعليقاً من فضلك، إنك ناشر فقط ولست بناقد.

وغادرته أخيراً ، حاملا معى ذلك الجزء الذى كتبه من القصة ، وكانت كمية لا بأس بها ، تبلغ تقريباً حوالى نصف كتاب من الحجم الذى أخرج فيه قصصه .

ومرت بعد ذلك فترة من الوقت دون أن أراه أو أسمع عنه ، حتى حمل إلىّ البريد ذات يوم رزمة من الورق فى مظروف ميزت عليه خطه ، ولم أشك فى أن هذا هو بقية القصة ، وإن كنت لم أستطع كتمان دهشى من أن يرسلها بالبريد ! وأمسكت بالظرف أفضه وأخرج منه رزمة الورق التى به ، وبحثت بينها لعلى أجد خطاباً يكون قد أرفقه بها ، فلم أجد شيئاً سوى النصف الثانى من القصة .

وأحسست بالكثير من الغبطة ، وقلت لنفسى : لو كنت أعلم هذا لعرفته بالفتاة الملهمة منذ زمن طويل ،

وتمنيت ألا يفترقا حتى يكتب عنهـا بضع قصص تعوض لنا فترة الخمول السابقة .

وأمسكت الورق أقلبه بين يدى حتى انتهيت إلى الورقة الأخيرة ، فدفعنى حب الاستطلاع إلى قراءتهـا حتى أعرف إلامَ انتهى الأمر بين صاحبنا وفتـاته ، وكيف كانت خاتمة قصته ، وبدأت القراءة :

« . . يا للهزل ويالليسخرية ؛ ياللإنسان الأحمق المغرور .. أهـذا هو الطبيب النفسانى الذى يعالج أمور الحب ؟ ! لقد أزمن به الداء واستفحلت العلة ، لقد سخر منه المريض وتركه يهذى كالمحموم ؛ لقد نجا المريض ، وسقط الطبيب .

المريض ! ! يا للفتـاة التى جعلت منه أضحوكة ! لقد أوقعته فى الشباك وتركته يترنح ويتخبط ، لقد اندفع فى حبها كالمجنون ، وهو الذى كان يظن أن الأمر لا يعدو اللهو والتسلية ، أو على حد قوله : « تبادل سرور » ، كم كان أحمق حين كان ينصحها ألا تندفع فى حبه حتى يستطيع شفاءها بسهولة . . لا شك فى أنها كانت تضحك منه كثيراً ، لأنهـا ما أحبته قط . . لقد كان الأمر عندها ليس إلا مجرد لهو وتسلية ، أما هو فقد صرعه الحب . . الحب الذى لم يقابل إلا بالخديعة والسخرية من الجانب الآخر ، ماذا يستطيع أن

يفعل بعد كل ما رأى ؟ لو كان الأمر بيده لذهب وحطمها ومزقها إرباً .

ولكنه كان يحبها ، يحبها بالرغم من كل ما حدث .

إن حياته قد أضحت مرة مضنية ، لشد ما كان يسخر فيما مضى من أولئك الذين ينتحرون من أجل الحب ، ولكنه الآن — وهو الرجل العاقل ، أو الذى يظنه الناس عاقلا — قد بات يتمنى لو استطاع أن يضع لحياته حداً ، ولكنه يخشى أن يتهموه بالجبن ، ما أغباهم وأسخفهم ! ! إن الجبن هو أن نبقى فى هذه الحياة . إننا نحتاج إلى شىء من الشجاعة كى ننجو بأنفسنا منها . أجل ، إن الجبناء هم الذين يخشون الموت ، ويفرون منه . ولكنه الآن لا تنقصه الشجاعة كى يرحب بالموت ترحيباً ، وليقولوا عنه ما شاءوا ، فإنه سيترك الحياة غير آسف ولا نادم » .

وبالرغم من أنه لم تكن لدى فكرة صحيحة عن القصة ، إذ لم أكن أعرف شيئاً عن هذا « الذى حدث » ، لأننى لم أقرأ منها سوى البداية والنهاية .

وبالرغم من أنى كنت أعلم أن خاتمة القصة قد تكون مجرد خيال فى خيال ؛ إلا أننى أحسست بخوف شديد يتملكنى من أن تكون الخاتمة حقيقة واقعة ، وأن تكون الفتاة قد

بلغت به الحال الذى يصفها ، وأنه سيضع — أو هو قد وضع فعلا — حداً لحياته ، ولا سيما أنه لم يأت لإحضار القصة بنفسه كما تعود أن يفعل دائماً .

وانطلقت إلى داره كالمجنون ، وقد ملأنى شعور بالحزن والخوف والندم ، ووصلت إلى الدار فوجدت السكون قد شملها . . سكوناً يشبه سكون الموتى ، واقتربت من الباب أطرقه فى خوف وإشفاق ، ومضت هنيهة دون أن يجيبنى أحد ، ثم فتح الباب ، فإذا بى أراه — هو نفسه — يقف أمامى فى أتم صحة وأوفر عافية .

واندفعت إليه أحتضنه ، فدفعنى عنه كما يدفع مخبولا به مس ، وصاح بى فى غضب :

— ما بك ؟

ونظرت إلى المنضدة فلمحت عليها (شانطة نايلون) سوداء عليها حرف (س) ميزت فيها (شنطة) الفتاة نفسها ، ولمحت على المشجب معطفها ، فعلمت أننى قد قطعت عليه لقاء جميلا ، وأن الخاتمة التى قد ظننتها حقيقة ليست إلا من بنات أفكاره ومبتكرات ذهنه ، وأن القصة الحقيقية لم تتم فصولها بعد .

وأحسست بأننى كنت — إلى حد ما — « حماراً » فلم أستطع أن أنسحب بسرعة ، وعدت أدراجى تاركا إياه يتم قصته .

ترضية

كنت أعرف أنك هنـــا . . وكنت أقدرك وأحترمك . . ولو تركونى لجئت إليك امرأة شريفة وأصبحت زوجتك . . أما وقد أصروا على آرائهم وسخروا منى . . فتعال ، تعال . .

وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية .

منه ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية .

انطلقت من كان يظن هذا ؟

من كان يخطر له على بال أن القدر سيمعن فى هزله وسخريته إلى هذا الحد ؟ .

وعاد يقلب صفحات الصحيفة حتى استقر بصره مرة ثانية على الصفحة التى شغلته بصورها وأنبائها وقد تربع اسمها بالخط العريض على صدر الصفحة .

لقد كانت أمله فى يوم ما ، أملا قريباً سهل المنال ميسور التحقيق . . . أما الآن . . !

وعادت الضحكة الساخرة المريرة تنساب من شفتيه .

أما الآن ! !

الآن . الآن ! !

لشد ما خذله الزمن فى هذا الآن . وخيب فيه آماله ، وبدد أحلامه .

كيف كان يبدو الآن ، عندما كان ينظر إليه من بعيد ، من سنوات خلت . وقد وقف فى مطلع الصبا ومشرق العمر يتطلع إليه بذهنه الحالم ونفسه اللهفى ، ويتصور ما وراء الغيب مليئاً بالورود والأغاريد .

كان شديد الثقة بنفسه وبالزمن .. ثقة قد بلغت حد الغرور واليقين .

وكان يجزم لنفسه أنه سيصنع رجلاً ذا شأن ، ولم يكن يقنع في آماله بالمطلب المعقول ، بل لم يكن يتصور نفسه مجرد طبيب مشهور ، أو محام ناجح ، بل كان واثقاً أنه سيصبح شخصية بارزة .. زعيماً أو قائداً أو فيلسوفاً يشار إليه بالبنان .

كانت الآمال تداعب نفسه كما تداعب نفس كل إنسان ، وكان يستقبلها في استسلام ودعة وحبور ومتعة .

كان يتخذ من أمانيه وسيلة لفترات رغد ، ولحظات هناء .

حتى لقيها . فإذا بالمنى تلح على نفسه . وتصر على أن تصبح — من أجلها — حقيقة واقعة .

رآها أول مرة عند عودته من المدرسة وقد وقفت مع لداتها بالمراول السوداء أمام باب المدرسة الإيطالية القريبة من دارهم تهم بركوب السيارة المدرسية . وتوقف برغمه في مكانه ووجد بصره يتبعها حتى تستقر في مقعدها ، واستدار رأسه مشيعاً السيارة حتى اختفت في أول منعطف .

كانت وقتذاك نسيج وحدها ، لقد جذبه وجهها بين عشرات الوجوه المتشابهة ، فلم يبصر سواه أو يذكر غيره .

وجلس للاستذكار ، فوجد وجهها يرتسم على كل صفحة وأمسك بالقلم يحاول أن يرسمها من الذاكرة . وهل كانت الذاكرة تعى حينذاك سواها ؟

رسم أنفها الدقيق ذا الطرف الأشم المرفوع ، ورسم شفتيها القرمزيتين المطبقتين فى ضيق وامتلاء ، ورسم شعرها الذهبى ذا الجدائل المترامية على أكتافها ... رسم كل هذا على الورق عشرات المرات ، ورغم مهارته فى الرسم فما استطاع مرة واحدة أن ينجح فى نقل تلك الصورة المطبوعة فى ذهنه ، إذ عجز أن ينقل بريق العينين وهالة الضوء المحيطة بها .

كان وقتذاك طالباً بمدرسة شبرا الثانوية ، وكان يقطن فى بيت يطل على حديقة طوسون ، وكان يتخذ طريقه دائماً إلى المدرسة عبر الحقول المليئة بالقصب والخضروات فى ذلك الممر الضيق المسمى « دهليز طوسون » ، ولكنه منذ أن رآها بدأ يغير طريقه ويضيف إليه لفة واسعة حول المدرسة الإيطالية ويضبط مواعيده بحيث لا يخطىء قط رؤيتها وهى تصعد إلى السيارة أو تهبط منها . أما فى أيام الجمع فقد كان يجول حول المدرسة علّه يلمحها من بين فتحات السور تلهو مع أترابها فى حديقة المدرسة .

وهكذا بدأ يضيفها إلى قائمة أمانيه ويضعها ضمن المنى التى

يعيش بها « زمناً رغدا » . والتى كان يجتر منها متعة إذا ما خلا إلى نفسه فى جلسته المحببة فى سكون الليل والأهل نيام ، وقد انكأ برأسه إلى حافة المقعد ومد ساقيه على سور الشرفة وأخذ يقلب البصر بين السماء والحقول ، وينصت إلى حفيف الريح تعبث بأطراف أعواد القصب وتسرى بينها كموج هادىء ، ومن آن لآخر يتعالى صوت نقيق الضفادع ، أو هبوط قط يتسلق السور المغطى بأوراق اللوف .

ورويداً رويداً أخذت تتمدد فى ذهنه وتتضخم فى قلبه حتى احتلت كل تفكيره . وتضاءلت بجوارها كل أمانيه .

لقد علمه الزمن بعد ذاك الكثير عن النساء ، ولقى منهن شتى أنواع المتع ، ولكنه لا يذكر أن مخلوقة واحدة استطاعت أن تهبه ذلك النوع المسكر المنشى ، الذى كان يحيطه بجو عاطر مزدهر .

كان لا يقارنها إلا بزهر الخوخ البيبى المعقود بأطراف الأغصان الجرداء ، وكانت تبدو له جزءاً من الطبيعة لا صلة لها بالبشر ، إذا حملت إليه الريح أريج زهر البرتقال . فهو عبيرها ، وإذا ما وصل إلى مسامعه هديل الحمائم ، فهو همس شفتيها .

وظل حبها كامناً فى نفسه مطوياً بين جوانحه . وهو قانع

بمجرد مراقبتها من بعيد ، موقن بأنها لا تحس له وجوداً ، حتى أبصرها ذات يوم عقب خروجه من إحدى دور السينما وقد جلست فى عربة تقف فى شارع فؤاد أمام شيكوريل ، فوقف يحملق فيها مشدوهاً ، وكانت هى مشغولة عنه بمراقبة الطريق والمارة ، ولكن أختها الصغيرة كانت تجلس بجوارها فدفعتها بمرفقها تنبهها إلى ذلك المشدوه الذى يحملق فيها . وأدارت إليه رأسها فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، وعلا وجهها احمرار شديد ، وسرعان ما حولت عنه بصرها مرة ثانية .

لقد عرفته ! ! إن بسمتها واحمرار الخجل . يجزمان بأنه يعنى شيئاً لديها ، وأنها قد أخذت بمرآه كما أخذ بمرآها .

وهكذا أخرجه ذلك اللقاء العابر من انطوائه ، وجعل حبه يتخذ دوراً إيجابياً ، ومنحه ما كان يفتقده من الشجاعة والثقة .

وبدأ بعد ذلك دور التجاوب بالنظرات والتفاهم بالعيون ، وطال به ذلك الدور وهو مغرق فى نشوته . يود لو أعلن لكل من لقيه أنها قد أصبحت تعرفه وأنها بسمت له ، وأضحى ككل عاشق يتوهم أن نظرتها إليه تعتبر حدثاً فى تاريخ البشر .

ولم يكن يستطيع أن يتصور ماذا يمكن أن يحدث بينهما

بعد ذاك ، ولا كان يخطر على باله أنه يمكن أن يحدثها فى يوم من الأيام . وهو الإنسان الخجول المكتوم ، القليل الخبرة بأحوال الحب .

كيف يصل إليها وهو لا يراها إلا خارجة من المدرسة أو راكبة السيارة ، وكيف يأمل فى لقائها وهى ، فيما يبدو ، من نوع أرستقراطى لا يكاد يخرج إلا فى عربة . إن الأمر يحتاج إلى معجزة وهو لا يعتقد أنه يعيش فى عصر المعجزات .

وذات يوم حدثت المعجزة التى لم يكن يتصور وقوعها ، ورسم له القدر طريق الوصول إليها .

كان ذلك فى إحدى الزيارات العائلية ، فقد ذهب وأسرته لقضاء أحد أيام العطلة فى منزل خالته بمصر الجديدة ، وعقب الغداء أخذت ابنة خالته تعرض عليه « ألبوماً » مليئاً بصورها هى ورفيقاتها فى المدرسة ، وفى وسط الوجوه المحتشدة أبصر بوجهها يضىء على الورق .

وأمعن النظر فى الصورة برهة ، ثم تمالك نفسه وسألها عن صاحبة الصورة .

فأجابت وهى تقلب الألبوم :

— إنها منى حسين ابنة زكى بك حسين مدير مصلحة (. . .) لقد كنا معاً فى البون باستير .

ـ فتاة لطيفة .

ـ أتعرفها ؟

ـ رأيتها بضع مرات فى المدرسة الإيطالية التى تجاور بيتنا .

ـ أتعجبك ؟

ـ جداً .

وتضاحك الإثنان ، وقالت الفتاة :

ـ لقد تعلمت الشقاوة .

ـ هذه تهمة ظالمة ، إنى لم أرها إلا من بعيد .

ثم صمت برهة وأردف متسائلا :

ـ أما زلت تعرفينها ؟

ـ لقد قابلتها منذ يومين ، ودعتنى لزيارتها ، وعاتبتنى على عدم السؤال عنها .

ـ ولمَ لا تسألين عنها ؟

ـ لأنى لم أكن أعلم أنك مغرم بها .

ـ والآن ؟

ـ والآن سأسأل كل يوم .

ـ وتزورينها ؟

ـ وماذا يهمك من زيارتى لها ؟

ـ لكى ترد الزيارة .

ـ آه . . فهمت . . وسيصادف وجودك بالطبع ساعة زيارتها ؟

ـ إذا كنت تتكرمين .

ـ أيها الخبيث . ماذا تريد منها ؟

ـ رؤيتها والحديث معها .

ـ فقط ؟

ـ فقط ، وأدفع نصف عمرى .

ـ لا داعى لنصف عمرك . . احتفظ به لمرة ثانية ، سأريك إياها مجاناً لوجه الله .

ـ متى ؟

ـ إحضر إلىّ يوم الأحد القادم .

ـ أواثقة أنت من إحضارها ؟

ـ سأبذل جهدى .

وفى اليوم الخالد ذهب ممسكا قلبه من فرط اللهفة والخشية . إنه يذكرها يوم ذاك ، جميلة ناعمة هادئة ، قد جلست تنظر إليه فى دهش وخجل ، وقد أخذت ابنة خالته تقوم بواجب التعريف بين الاثنين .

ولم تمض برهة على لقائهما حتى كان كلاهما يقبل على صاحبه وكأن بينهما وداً قديماً .

وتكرر اللقاء بينهما بعد ذلك فى بيت خالته ، ثم تحايلا على اللقاء وحيدين .

كان وقتذاك فى الثامنة عشرة ، وكانت هى فى الرابعة عشرة ، ومع ذلك فقد كانا فى حبهما أبعد ما يكونان عن الطيش والنزق واللهو ، كان كل منهما أعقل وأكبر من سنه ، وكانا فى تفكيرهما جادين كل الجد ، ساميين كل السمو .

كان أمامه سنة فى المدارس الثانوية ، وكان من رأيه أن يدخل السلك العسكرى حتى يسرع فى التخرج لكى يقرب موعد زواجهما ، ولكنها كانت ترى أن يدخل الهندسة ، فقد كانت تريده مهندساً بارعاً عظيم الشأن . ولم تكن ترى هناك ما يدعو للعجلة ، ما دام كل منهما يرى صاحبه وينعم بلقائه .

واقتنع برأيها ، وبدأت أمانيه التى لم تكن تعدو مجرد أمانى يسلى بها نفسه ، تتحول إلى هدف لابد من تحقيقه ، فقد كان يحس أن أباها أرفع من أبيه شأناً ، وأن عائلتها من الطبقة الارستقراطية ، ولهذا فقد ود أن يكون أهلا لها حتى يسهل على أسرتها قبوله ، وحتى يكون نداً لها .

لقد كان واثقاً منها ، ولكنه رغب فى أن يجنبها معارضة الأهل .. وهو لا يذكر أنه اندفع فى عمل كما اندفع وقتذاك

فى الاستذكار والتحصيل والسهر ، لقد صمم على أن يكون إنساناً ذا شأن ، وأن يكون أرفع من أبيها الذى أصبح وقتذاك وكيل وزارة .

ولِمَ لا ؟!

إنه يستطيع أن يكون جراحاً نابغة ، أو مهندساً بارعاً ، أو محامياً شهيراً ، ويستطيع أن يصيب من الثراء ما يهيء به لها حياة أكثر رغداً من حياة أبيها .

أجل ، إنها تستحق كل خير ، ولابد أن يهبها ما تستحق .

تلك كانت أمنيات الصبا ، ورغبات التلمذة .

ماذا فعل بها الزمن ؟

لقد ذراها بنفخة واحدة .. لقد ضيعها بدداً .

لقد رزقه بالمصاب من حيث لا يحتسب .

فى ذات يوم ، صعدت مع ملايين الأرواح الصاعدة إلى السماء روح أبيه .

لقد مات أبوه فى يوم الإمتحان ، ومع ذلك فقد اجتازه ونجح إلى السنة الخامسة ، ولكن الاستمرار فى الدراسة كان أمراً متعذراً ، فقد مات أبوه دون أن يخلف لأسرته سوى مكافأة ضئيلة ، وكان عليه أن يعمل لكى يكسب قوته وقوت أسرته .

ونجح بعض الأقارب فى إلحاقه بوظيفة كتابية ، ولكن كان عليهم أن ينتقلوا من بيتهم إلى بيت أقل أجراً ، وأن يضغطوا مصروفاتهم بما يتناسب ودخلهم البسيط المحدود .

وهكذا غادروا الحى ، فقد عز عليهم أن يبدوا أمام المعارف بمظهر الأذلاء المحتاجين .

وهو يذكر لقاءها بعد وفاة أبيه ، ويذكر عزاءها له وتشجيعها إياه ، ويذكر شحذها لعزيمته واستنهاضها لهمته ، وقولها له إنها ستنتظره حتى يحقق آماله .

يحقق آماله ؟ ! كيف ؟ ! وبم ؟ !

لا ، لا ، لقد كان من الجنون أن يحاول التمسك بآمال حطمها الزمن ، إن عليه أولا وقبل كل شىء أن يطعم عائلته ويكسوها ، أما غير ذلك فيجب أن يطرح من الذهن .

ومرت الأيام وهو فى مهمته الجديدة مرهق مكدود ، لقد كان أجره من وظيفته تافهاً بالنسبة إلى المطالب التى يجب عليه أن يؤديها لعائلته .

وفى ذات يوم سنحت له فرصة هيأت له مخرجاً من تلك الحاجة والعوز ، ولكنها لم تكن فرصة خالصة ، بل كانت تحوطها بعض المساوىء التى تحتاج إلى موازنة وتفكير .

لقد كانت وظيفة ساق فى أحد الفنادق الكبرى .

أجل ، ليسم ساقيا ، أو رئيس سقاة ، أو يسمونه ما شاءوا ولكنه لا يزيد على « جرسون » .

يا للسخرية ! .

أهذا هو المركز العظيم الممتاز الذى كان يتوقعه لنفسه ؟! لا . . لا . . إنه لن يقبل .

ولكن الأجر كبير ، وأسرته فى أشد الحاجة إليه ، وهو عمل شريف لا غبار عليه .

لا ، لا ، يجب أن يقبل ، إن رفضه إياه هو الأنانية بعينها .

وماذا يخشى على نفسه منه ؟ وممن يخشى ؟

يخشى من مخلوقة واحدة ! . .

هى . . .

ماذا تقول إذا علمت أنه قد أصبح جرسونا ؟ .

ولكنه لن يخبرها .

لقد انقطع عن رؤيتها ، ووطن العزم على نسيانها ، فقد كان من الخبل أن يأمل فيها .

وهكذا قبل العمل الجديد .

ومرت به الأيام الأولى فى عمله وهو مرتبك خجل ، ولكنه بدأ يتعوده شيئاً فشيئاً ، حتى اطمأن إليه ، ولم يعد يرى فيه ما يهدر كرامته ، ما دامت هى على الأقل لا تعرف .

وهكذا مر به الزمن ، وهو لا يحاول السؤال عنها أو معرفة أخبارها ، حتى فوجىء اليوم برؤية صورها فى الصحف ، وبقراءة أنباء زواجها من أحد أرباب الثروات والمراكز فى مصر .

وهكذا أصبحت علماً من الأعلام تكتب فى صدور الصحف أنباء ذهابها وإيابها وتوصف حركاتها وسكناتها وترسم فى كل حل لها وترحال .

ولم يشعر من زواجها بحزن . فقد كان يشعر أنه قد فقدها من زمن ، وأن من السخف أن يحاول التطلع إليها أو الحزن على فقدها ، لقد تراكمت ثلوج اليأس على قلبه ، فما عاد يهفو لفرحة أو يرجف لحزن .

وناداه ذات صباح رئيس الفندق وأخبره أنه يثق فى ذوقه ومقدرته ، وأنه لذلك سيعهد إليه بخدمة نزيل عظيم سيحل بالفندق لقضاء شهر العسل هو وزوجه .

وأحس بقلبه يدمى ، فقد رأى أن سخرية القدر قد بلغت أشدها ، وحاول أن يعتذر ، ولكن صاحب الفندق أبدى دهشه وأصرّ على أن يتولى هو خدمتهما .

ولم يكن أمامه سوى الرضوخ والرضاء بالأمر الواقع ، والتعزى بالمثل « ماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ » .

ولم يعد له سوى أمل ضئيل يتعزى به ، وهو أن تكون قد نسيته .

وهكذا وقف ينتظر مقدمهما ، ووقفت العربة الفخمة أمام الباب ، وهرع الخدم يفتحون الباب ، ونزلت هى وزوجها تتهادى فى عظمة .

واشتدت ضربات قلبه ، وأطرق برأسه إلى الأرض .

يا للقلب الذى لا ينسى ! ، إنه يتخبط فى صدره ، لقد تخلص من ثلوج اليأس وعاد يهفو ويصفق .

إنها هى . هى ، بطرطوفة أنفها وشفتيها القرمزيتين وشعرها الذهبي .

وهذا هو زوجها ، بوجهه المنتفخ ولغده المتدلى على صدره ، وبطنه المتدلى على ساقيه ، ورأسه اللامع البراق .

لعن الله المال .

إن هذا الخنزير الأبيض لو قدر بغير ماله ، لما وازى ثمنه أكثر من خمسة وعشرين جنيهاً هى ثمن ملابسه .

ويحه ! إنها لاشك قد نسيته ، أو إنها تتعمد إنكاره وتجاهله .

وماذا كان ينتظر سوى هذا ؟

هل كان يتوقع أن تهجم عليه فتوسعه أحضاناً وتقبيلا ؟

كيف يمكن أن تعامل مليونيرة مثلها ساقياً مثله ؟

وأحس بالذلة والمسكنة ، إنها لا شك معذورة فى تصرفها ولكن أما كان يجب أن تمنحه نظرة معرفة لا يحسها سواه ، أكثير عليه أن تمنحه مجرد نظرة تعارف ؟

ومضى اليوم وهو قائم بالخدمة ، وهى لا تكاد تحس له وجوداً أكثر من أقل خادم .

لقد كان عليه أن يحتمل شهراً من الإذلال .

وفى المساء هبط الخنزير الأبيض وحده إلى صالة العشاء ،

ثم انتقل بعد ذلك إلى حجرة الورق وانهمك فى اللعب .

وبعد هنيهة أنبأه أحد الخدم أن السيدة تريد العشاء فى حجرتها . وأنها تطلب أن يحمله هو إليها .

هو بنفسه ! أجل ، إنه إمعان فى الإذلال ، لمَ ؟ وماذا فعل ؟

ولكن لا بأس عليه ، إنه سيصمد أمام عاصفة الإذلال ، ماذا يضيره أن يحمل إليها العشاء ، أليس خادماً ؟!

وهكذا حمل الطعام ، ووقف يطرق باب حجرتها ، فصاحت به :

ـ ادخل . . . ادخل .

وفى الحجرة وجدها واقفة تنتظر ، ووضع الطعام على المائدة وهو مطرق الرأس دون أن ينظر إليها ، ثم استدار وهم بالخروج ، ولكنها قالت هامسة :

ـ تعال .

وواجهها رافعاً رأسه ، فعادت تهمس :

ـ اقترب .

واقترب منها حتى تلاصقا ، وأمسكت بيده فضغطت عليها فى حرارة وأردفت هامسة :

ـ دعنا نسخر منهم جميعاً . . دعنا نسخر من القدر الساخر . . ماذا كنا نريد أكثر من شهر عسل فى مثل هذا الفندق ؟

وتردد برهة ، فقد سلبته المفاجأة صوابه ، ولكنه سرعان ما مد ذراعيه يضمها إليه وأطبق على شفتيها

ثم رفع شفتيه برهة وأخذ يتمتم فى ذهول :

ـ ظننتك نسيتنى .

ـ أنا أنساك ! لقد صممت على انتظارك فسخروا منى ، وعندما تقدم هذا « الشوال » من الذهب لخطبتى كادوا يجنون من الفرح ، واعتبروها فرصة العمر ، وكان من الجنون أن أحاول مقاومتهم ، فاستسلمت .

لقد ضحوا بى فى سبيل أغراضهم ، لقد تزوجوا هم صاحب الملايين ، أما أنا فقد كنت طعما لصيدهم ؛ كانوا كلهم مغرضين غير شرفاء ، فلماذا نكون نحن وحدنا شرفاء . لقد سخر منا